

# ثقافة العشوائيات

دكتور  
عبد الله نجيب  
أ. صلاح عبد الحميد



مؤسسة طيبة للنشر والتوزيع

# ثقافة العشوائيات

@booka

دكتور

عبد الله نجيب

أ. صلاح محمد عبد الحميد

الناشر

مؤسسة طيبة للنشر والتوزيع

7 شارع علام حسين - ميدان الظاهر - القاهرة

ت- 0227867198 / 0227876470

فاكس / 0227876471

محمول / 01112155522 - 01091848808

طبعة 2022

فهرسة أثناء النشر من دار الكتب والوثائق القومية المصرية

عبد الحميد ، صلاح محمد .

ثقافة العشوائيات / صلاح محمد عبد الحميد . - ط 1 . - القاهرة : مؤسسة طيبة للنشر

والتوزيع

176 ص ؛ 24 سم .

تدمك : 9-115-431-977

1 - الأحياء السكنية الفقيرة

2- العشوائية

أ-العنوان

307.344

رقم الإيداع : 16822

بسم الله الرحمن الرحيم

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ {1/96} خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ {2/96} اقْرَأْ وَرَبُّكَ  
الْأَكْرَمُ {3/96} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ {4/96} عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ {5/96})

صدق الله العظيم

@booka.

## مقدمة

لقد ازداد أخيراً، ومنذ ما يقرب من عشر سنوات مضت حول قضية العشوائيات بالمجتمع المصري حيث لاقت اهتماماً سياسياً وأمنياً وتكثيفاً إعلامياً ونشاطاً ثقافياً، وصار الاهتمام بهذه القضية يمثل الاتجاه الرسمي المعلن من جانب الدولة.

وبالنسبة إلى مصطلح العشوائية يبدو أن عدم الاتفاق بشأن المقصود بمصطلح العشوائيات قد تسبب -ضمن عوامل أخرى - في زيادة غموض القضية ذاتها ومن ثم المساهمة في تسطيحها، ولعل من الثابت أن الدافع الأمني -هو الذي فجر هذه القضية من مكانها، غير أن المناطق العشوائية وفقاً لجميع التعريفات قد وُجِدَت واستقرت واستفحلت كظاهرة مُكوّنة للنسيج العمراني - الاجتماعي قبل ذلك بكثير .

وبالنسبة إلى التشخيص الواقعي للظاهرة والتي هي بمثابة مشكلة بشر أكثر من كونها مشكلة "" مسكن "" أو مشكلة التعدي على أملاك الدولة أو الغير بوضع اليد ، فهناك أنماطاً متعددة ومتنوعة وشديدة التباين للعشوائيات والتي يبلغ عددها 1034 منطقة في عام 1994 ، والتي يمثل بها البعد الاجتماعي محوراً لا يمكن تجاهله في تشكيل ظاهرة العشوائيات .

إن مشكلة العشوائيات هي مشكلة مُركّبة ناتجة من تداخل الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتي ساهمت في تشكيلها بهذه الصورة ولقد كان الدافع الأمني هو الدافع الذي وضعها في بؤرة اهتمام الدولة وعنايتها من منطلق ما تمثله هذه المناطق من إثارة القلاقل، والتي يجب أن تحل مشاكلها.

على أن يكون المستهدف من هذا الكتاب مبدئياً هو :  
محاولة الوقوف عند مفهوم ثقافة العشوائيات في إطار التقدير لهذه الثقافة على  
المستوى العلمى والأدبى :

1. الكشف عن جذور ثقافة العشوائيات .
2. الكشف عن أساسيات ثقافة العشوائيات .
3. الكشف عن تجليات ساكنى العشوائيات في المجالات الآتية :
  - العادات والتقاليد.
  - منظومة القيم والمعايير والسلوك.
  - اللغة .
  - الانعكاسات الأمنية للعشوائيات .

الباحث

صلاح محمد عبد الحميد

## مدخل إلى ثقافة العشوائيات

إيماناً بوجود تمايز بين ثقافة النخبة والثقافة الرسمية من جانب وبين ثقافة الجماهير من جانب آخر على مستوى البنية وآليات التغير والمضامين القيمية والمعرفية والفنية وغيرها ..

تم اختيار موضوع ( ثقافة العشوائيات ) وهو مفهوم جديد يحاول اكتشاف بنية ثقافة الجماهير العربية وهو بذلك يستوعب ويتجاوز مفهوم الثقافة الشعبية انطلاقاً من التقدير الكبير لهذه الثقافة .

وقبل الخوض في شرح المصطلح فإننا نؤكد أن التسمية إنما تركز على مرتكز متناقض في ظلاله الدلالية كل منهما الأول ، هو المعيار الدولى لساكنى العشوائيات على أنهم فقراء والذي يجعل كل من تنخفض دخولهم عن دولارين للفرد يومياً من الفقراء ، وهو معيار يجعل نسبة كبيرة من الشعب المصرى بمعلميهم ومثقفهم ومبدعيهم من الفقراء أو من سكان العشوائيات بالمعيار الدولى .

وهى مفارقة لأن هذا الاحتياج الذى يجعل المرء وفقاً للتقديرات والتنظيرات الدولية في حاجة إلى دعم أو مساعدة ، فإن المواطن المصرى ومن يشملهم هذا التقدير بالفقر مبدعون منتجون ولهم أساليبهم المبتكرة التى تضاف إلى رصيد الإنسانية في رحلتها للتكيف مع هذا العالم بحلوه ومُره .

وإن منتجى الثقافة في مصر هم في الغالب الأعظم ممن تعتبرهم التقديرات الدولية من الفقراء وسكان العشوائيات والأكثر أن المجتمع يعيش ثقافياً على إنتاج هؤلاء .

وتكتسب ثقافة البسطاء أهميتها من جوانب عدة ، فمن حيث الموروث يعد الفقراء بثقافتهم الشعبية غير النخبوية هم الرصيد الحى للتراث الشعبى الذى تكوّن عبر ترسبات من أزمنة متعاقبة تمثل الحقب التى مر بها المصريون وتركت



بصمتها على مكونات الثقافة فيما يكشف عن الجوانب الأصلية والفرعية في تكوين الشخصية المصرية.

وأهمية ثقافة البسطاء تمثل نموذجاً لثقافة محلية ذات مغزى إنساني إذ أنها ثقافة تكونت عبر تجربة تاريخية طويلة جداً مما يعطى الاطلاع عليها قيمة علمية مهمة إلى جانب أن الاطلاع على ثقافة العشوائيات له أهمية خاصة في التنبؤ بالسلوك المجتمعي إزاء التغيرات المختلفة .

وإنه من الأهمية بمكان أن نفص اللتباس الكبير بين مفهومنا لثقافة العشوائيات والبسطاء الذي نسعى إلى تأسيسه وبين مفهوم ثقافة الفقر على ما بينهما من تداخل وتمايز ، فمفهوم ثقافة الفقر والذي تم إطلاقه مؤخراً بدأ منذ عقود على يد أوسكار لويس في دراساته عن المجتمع المكسيكي والتي تمحورت حول حياة الشعوب الريفية في البيئات الحضرية، حيث يذهب لويس إلى أن الفقر ليس مجرد حرمان اقتصادي وتفككاً اجتماعياً ، لكنه يخلق أسلوب حياة له صفة الانتظام والرسوخ النسبي ويحدد خصائص ثقافة الفقر بأنها :

نقص مشاركة الفقراء في النظم الاجتماعية الرئيسية ووجود أنماط خاصة للحياة العائلية بينهم ولللاقات الجنسية ولأساليب تنشئة الأطفال إلى جانب اللامبالاة والاستسلام للواقع والمستقبل المنبثق عنه .

وعند لويس أيضاً فإن ثقافة الفقر تنهض على العديد من العوامل الاقتصادية في المحل الأول ، يليها عوامل اجتماعية نتيجة تفاعل الفرد مع مجتمعه ثم عوامل نفسية تتعلق بتوافق الفرد مع نفسه ومع مجتمعه اجتماعياً ونفسياً ، وهى عوامل ليست منفصلة ولكنها متداخلة وتؤدي إلى شعور الفرد بالتدنى وضياح قيمة التفاعل ، وثقافة الفقر تستلزم بعض الشروط الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وتؤكد بعض القيم لدى الفئات القادرة مثل أن الوضع الاقتصادي المنخفض يرجع لعدم الكفاءة الشخصية .

ونتيجة رواج تلك الثقافة تصاحب أفراد المجتمع حالة من الإحباط العام مع رواج الحلول الفردية ولذلك فهو يرى أن إلغاء الفقر أسهل من إلغاء ثقافة الفقر وبالتالي فلا حيلة إلا إعادة النظر في الهياكل الاجتماعية كي تصبح أكثر تنظيماً أو مشاركة في المنظمات الاجتماعية بالإضافة إلى التمسك بقيم المشاركة والترابط بداية من الأسرة إلى المجتمع .

ويذهب عبد الرحمن سعد إلى أن ثقافة الفقر تجسد واقعاً يائساً ، أهم خصائصه انخفاض المستوى المعيشي وما يستتبعه من جوع وعري وأمية وجهل ومرض واضطراب الحياة الاجتماعية وتعاضم اللاوعى والمعاناة وتفشى البطالة خاصة في القوى القادرة على العمل والتشغيل .

أما حامد عمار فإنه يرى أن ثقافة الفقر هي نتاج مؤثرات عولمية على الطبقات الدنيا التي يتشكل منها ثقافة الفقر لما تفرضه من تزييف وعى الطبقتين الوسطى والعليا وفرض خضوعها لإنتاج برامج ووسائل الاتصالات والمعارف الحديثة ومن هذا النتاج تداخل مقومات التماسك الاجتماعي والدخول في حومة الصراع بين الأجيال وظهور ثقافة المعوز المادى والنفسى والاجتماعى وتفسخ القيم المكتسبة من الدين كقوة دافعة للنهوض بالمجتمع .

وهنا نلاحظ أن ما طرحه أوسكار لويس وتم تداوله حول مفهوم ثقافة الفقر هو نمط سلبي من الثقافة يطبق مفهوم العنف الثقافي الذى طرحه بيير برديو تجاه طبقة من المهمشين العاطلين الذين يعانون ضيق الفرص للحياة والرفاهية ، ثم إنهم يواجهون منظومة فكرية ترسخ هذه الحالة في ممارسة عنف ثقافي تجاههم ليتم إعادة إنتاج بنية التفاوت الطبقي في المجتمع .

ومن هنا جاء مفهوم أوسكار لويس حول أن الفقراء في العالم الثالث يختلفون عن الفقراء في الدول المتقدمة ، إذ أن الفقر المادى هو الأكثر تأثيراً ولذا فهو يقول: " إن إلغاء الفقر أسهل من إلغاء ثقافة الفقر".

ومن هنا فإن مفهومه لثقافة الفقر يمثل العلاقة الجدلية بين الفرد والمجتمع وبين الفرد وتوقعه المستقبلي لأُمور حياته وحياة أبنائه من بعده.

ورغم أن جانباً كبيراً من أسباب إعادة طرح مفهوم ثقافة الفقر يعود إلى نقد مضمّر أو صريح من جانب فصيل من المنظرين الاقتصاديين في العالم الثالث لصندوق النقد والبنك الدوليين ولترويجهما لسياسات اقتصادية تقوم على التنافس الحر وآليات السوق باعتبارها الوصفة الوحيدة للعلاج تقدم لدول العالم الثالث بشكل عام وبدون تمييز أو مراعاة لعدم تمكن هذه البلاد ثقافياً من مواكبة ذلك عدم الإفادة من رصيدها الثقافي الذي يشجع على التعاون والتكامل بدلاً من التنافس .

ومن هنا نجد رينيه ريمون يقول : " إن البنك الدولي ما فتىء يرثى الفقر المطلق لهذه البلدان بدون أن يرسم أية علامات استفهام بشأن مسؤولياته في ذلك " .

وهذا المفهوم لثقافة الفقر ليس مفهوماً شعبياً ، بل هو مفهوم تنظيري يرصد السياسات والفكر الاقتصادي ويكشف عما اعتراها من عوار تمثل في إغفال معطيات ثقافية محلية في بعض البلدان في العالم الثالث ، ولعل هذا هو الاستخدام الأكثر شيوعاً لمفهوم ومصطلح " ثقافة الفقر " وهو ما يؤكده عادل سعد إذ يرى أن من أخطر مكونات ثقافات الفقر الإيحاء بأنه لا يمكن النهوض بالاقتصاديات الوطنية إلا في إطار منافسات ربحية .

وإشاعة اقتصاد السوق بوصفه المحفز الذي لا بديل له إذا أريد لأى اقتصاد أن ينهض ، وقد أخذت هذه الثقافة أبعادها في أكثر الاقتصادات الوطنية عوزاً الأمر الذي عطل العديد من التطلعات التعاونية التى هى أساس النجاح للتنمية لو طبقت أخلاقياتها بصورة جذرية ومن خلال قوانين اجتماعية معتمدة كعرف وليس كتشريعات للعقوبة والثواب .

ويعنى أوضح ، إن إهمال الثقافة العشوائية طوحت تلك التطلعات واستبدلت المعرفة الاقتصادية التضامنية بالمعرفة الاقتصادية التنافسية الصراعية الوضع الذى ترتب عليه على الصعيد العالمى الدخول في خصومات اقتصادية دموية .

وهنا ينبغي التأكيد على أن مفهوم ثقافة الفقر يختلف عما تهدف إليه دراستنا حول مفهومنا الجديد " ثقافة العشوائيات " إذ أن مصطلح ثقافة العشوائيات يطلق للتعبير عن منظومة ثقافية متكاملة وحيّة لدى الجماهير المصرية منظمة متفاعلة ومتجاذلة مع الواقع والتاريخ والبيئة والمعتقد والمتغيرات الأخرى في الساحة المصرية . هذه المنظومة المركبة لا ندعى أننا على قدرة تامة على الإحاطة بكل مفرداتها وأبعادها إذ أنها منظومة من أكبر وأعقد المنظومات الثقافية الشعبية لأنها تخص شعباً هو أقدم المجتمعات المنظمة على وجه الأرض وإنما نسعى إلى تقديم محاولة ومقاربة منهجية لأضلاع ومحددات هذه الثقافة.

ولأن اكتشاف منظومة القيم المعقدة المعتمدة والشائعة لدى المجتمع المصرى يحتاج بعد هذا الاستطلاع لآراء الخبراء والمنظرين حول روافده إلى مسح ميدانى موسع لكل سكان العشوائيات في مصر وفي محاولة للوقوف على جانب من جوانب تلك الثقافة مثل منظومة القيم الشائعة .

ويبقى فارق جوهرى بين مفهوم ثقافة العشوائيات وبين المفهوم السابق لثقافة الفقر إذ أن المنظرين لثقافة الفقر انطلقوا من رؤية مرجعية تتمثل في نموذج الثقافة العام أو الشائع أو ثقافة الوفرة باعتبارها مرجعيات يمكن كشف ما يمكن اعتباره سلبيات في ثقافة الفقر مقارنة بثقافة الوفرة .. وهو منطلق يضع ثقافة المجتمعات الغنية في الغرب غالباً في وضع معيارى بالنسبة لثقافة الفقر التى سوف تنكشف مساوئها تلقائياً بمقارنتها بالثقافة المرجعية .

ومن هنا فإننا نلفت النظر إلى أن العناية بقضايا العشوائيات الفقراء ليست هدف هذه الدراسة ، فهو مجال لدراسات أخرى ليست بجديدة وإنما ما يعنى به هذا الإصدار هو الاهتمام بثقافة ساكنى العشوائيات وكذلك قضاياهم.

إن عمق التجربة المصرية حضارياً وثقافياً ارتكز على هؤلاء الفقراء فصار الفقراء بثقافتهم غير النخبوية هم المعين الأوضح للرصيد الثقافي الحضارى المتوارث حيث المؤثرات الوافدة الحديثة أقل تأثيراً من شرائح المجتمع الأخرى والتي تكونت لاحقاً بفعل التطورات الاقتصادية والسياسية عبر النصف قرن الماضى كما أن تمثل النماذج الغربية لم يكن متجذراً على المستوى الشعبى ، إذ مال الشعبى دائماً إلى الاختلاف عن النخبوى في جملة من القضايا والإشكاليات مثل الموقف من الهوية والتراث أو الوافد أو الدينى أو الاقتصادى أو غيرها من المتغيرات.

## مفهوم المجتمع العشوائى

الحقيقة أننا عندما نتحدث عن العشوائيات والعنف الاجتماعي، فإننا نتحدث عن تلك المناطق المحصورة جغرافياً حول المدن أو على أطرافها الشعبية، أو بدايات المناطق الصحراوية أو المناطق الزراعية التي تم تعريفها، وبالتالي ينحصر حديثنا في النطاق الجغرافي، بمعنى أننا نضع تعريفاً للعشوائيات بهذا المعنى ربما يكون من الأولى أن ننصرف إلى ما يمكن أن نسميه تعريفاً مصرياً للعشوائيات.

العشوائيات، هل هذا هو معناها الدقيق؟ ربما في أماكن كثيرة، أظن أننا عندما نتحدث عن العشوائيات في النظام المصري، في النظام الاجتماعي المصري ربما يكون من الأوفق، أن نضع تعريفاً مختلفاً قليلاً في هذا الإطار، وانطلاقاً أيضاً من نفس المؤشرات التي يمكن أن نراها للحالة العشوائية التي نتحدث عنها هذه المناطق الجغرافية التقليدية التي نسميها العشوائيات ربما نرى أن نفس هذه المؤشرات الموجودة في كل المجتمعات، العنف بمعنى الفوضى الذي نتحدث عنه جميعاً، موجود في مساحات أخرى غير العشوائيات التي نسميها تقليدياً هكذا.

المقصود عشوائيات السكن على وجه التحديد، ولكن وحتى في هذه القضية فإن الضبط المنهجي للمصطلح ليس هيناً، فليس من السهل تحديد المقصود بالعشوائيات، فهل هي Squatter Settlement or Shanty Towns Slums أم ذلك كله مجتمعاً، هل هي نمط جديد، أم أحياء متدنية متأخرة.. الخ.

لم نقف بعد على تحديد واضح ولن نستطيع ذلك إلا بتحديد المناطق التي نقصدها بالفعل، لدراسة العشوائيات كمشروع قومي. هناك بعض المفاهيم وبعض التصورات المتعلقة بدراسات السكن، كما تم التفكير في إمكانية التوجه لدراسة عشوائية الريف، بعد أن تم الانتهاء من بعض نماذج عشوائيات الحضر في القاهرة الكبرى على وجه التحديد.

إذن المصطلح فيه مشكلة، كذلك مصطلح العنف الاجتماعي فيه مشكلة، مشكلة سيولة ، مشكلة تحول واتساع ، مشكلة دلالة تتعلق بالمقصود به ، هل هو قاصر على منطقة بذاتها ، كتصور العشوائيات السكانية، أم هل هو مفهوم شامل للمجتمع المصري كله يتجسد على وجه الخصوص في المناطق المتأزمة كالعشوائيات .. الخ.

وتحديد ملامح هذا العنف ، ليست علاقة سببية بين العشوائيات والعنف الاجتماعي، ولكنها علاقة شاملة وتحتاج إلى رؤية بنائية للمجتمع، وليس رؤية في منطقة محددة أو في مناطق بعينها على الأقل.

إن العشوائيات ليست نمطاً واحداً ، والدراسات أثبتت ذلك بوضوح، وإنما هي أنماط متعددة متنوعة باللغة التعقيد ، كما أن هناك صعوبة بالغة في تحديد نموذج معياري أو قياسي للمنطقة العشوائية. المنطقة العشوائية كبيرة، فعلى سبيل المثال هناك منطقة عشوائية نشأت نتيجة التعدي على أملاك الدولة، منشية ناصر نموذجاً وغيرها، كما أن هناك مناطق عشوائية كانت في الأصل نواة ريفية حوصرت بمنطقة حضرية أو صناعية وأصبحت هي نتوءاً في جسد المدينة ( الحوتية ) نموذجاً .

هل هي مناطق نشأت في أحضان ما حاولت الدولة إصلاحه مُمثلاً في مساكن الإيواء وتفاقت المشكلة ونشأت حول هذه المساكن مناطق عشوائية جديدة ( زينهم ) نموذجاً.

هل هي منطقة نشأت مباشرة كمنطقة عشوائية، الشراعية نموذجاً والعشش على وجه التحديد ، هل الأشكال الأخرى مثال القوارب في النيل، أو سكنى المقابر وذلك الأخير نمط فريد تختص به مصر بمفردها على مستوى العالم بأكمله هل هي سكنى المنازل والحجرات التي تتواجد على الأسطح أو تحت السلم أو تحت الكباري ، هنالك أنماط فريدة متنوعة جميعها تندرج تحت مسمى العشوائيات لكنها شديدة التباين وهذا محل الصعوبة في الدراسة بالتحديد ، فهي ليست

شديدة التباين على الصعيد المادي فقط ، ولكنها شديدة التباين في سكانها وفي نوعية الحياة فيها وبمشكلاتها وبالأثار الناجمة عنها ومن بينها العنف.

إن ظاهرة اختلاط النظم القيمية المتجاورة المتصارعة معاً أيضاً موجودة في مناحٍ أو مناطق كثيرة من المجتمع، ربما يكون الفارق الوحيد هو ذلك المتعلق بالمشهد الخارجي، إن هذه المنطقة عشوائية بحكم افتقادها لبعض الخدمات ، لافتقادها لبعض النظافة ، لكن الحالة العشوائية، هي حالة مجتمع بأكمله.

هذه الحالة في اعتقادي ترتبط بعنصر هو انسحاب المجتمع المصري ، كما أظن وأعتقد هو مجتمع قائم على وجود القانون ، وجود القانون بطريقة ما محسوسة أو غير محسوسة ، ولكن شعور المواطن أن القانون والدولة هنا موجود سواء في أداء اقتصادي ، أداء اجتماعي ، أداء ثقافي ، ولكنه موجود بأداء ما. في هذه الحالة فإن القانون والدولة اليوم يبدو غائباً عن كل مناطق مصر الجغرافية.

الدولة لديها هدفان أساسيان : الحفاظ على الاستقرار، والحفاظ على الأمن وإذا ترافق هذا الغياب، مع الانسحاب الملاحظ في كل المناطق الاجتماعية والجغرافية والثقافية، لنا أن نتخيل أن هذه هي العشوائية، كما نفهمها في المجتمع، وبالتالي تأتي هذه الظواهر التي نتحدث عنها من أول أحداث العنف التي نراها في بعض الطبقات العليا جداً ، مثل حادث أركاديا وغيره، حتى أحداث البساتين.

كل هذا يدخل ضمن ما نسميه بالتعريف المصري للعشوائيات، وربما يكون هذا مرتبطاً بظاهرة أخرى للعشوائية ، تبدو واضحة للغاية في المجتمع المصري ، وهى تلك الظاهرة التي تسمى على المستوى السياسي بالظاهرة المملوكية ، بمعنى أن هناك ، وهذا بدا واضحاً في السنوات الأخيرة ، إدارة مملوكية على المستوى السياسي ، بمعنى أن هناك توجهاً للإدارة بالتفويض ، أن الدولة تفوض كل مالك يدير مكاناً عاماً أو خاصاً، لكي يديره كما يريد، وأن يفعل به كما يريد، يديره بالفساد أو من غير فساد أو بولاء، بشرط أساسي أن لا يتمرد المملوك على المملوك



الأكبر منه. وبشرط آخر هو أن يحافظ على الاستقرار وعلى الأمن، مادام هذان الشرطان الرئيسيان متوافرين فالظاهرة مستمرة. هذه الإدارة المملوكية أدت على المستوى السياسي والاجتماعي، إلى الانقطاع والتجزر، بمعنى الجزيرة، وعبر المواءمة بين الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ربما نستطيع أن نتفهم وأن ندرس معاً، ظاهرة العشوائيات التقليدية، لأن هذه الظاهرة.

كما كتب كتاب كثيرون، هي ظاهرة قديمة، ربما تعود إلى العشرينيات على الأقل في القاهرة الكبرى، ولكننا لم نحس بخطرها إلا في السنوات الأخيرة بدأنا نشعر بالظاهرة . كذلك فإن هناك ضرورة لوضع الظاهرة في سياقها ومراعاة طبيعة التطور الاقتصادي والاجتماعي في مصر والأعراض الجانبية له، ولكن رغم ذلك يظل هذا الموضوع في حاجة إلى تصور مصري لما هي العشوائيات. ففي الحديث عن العشوائية في المجتمع المصري نعني هذا الانقطاع والتجزر ما بين بنى المجتمع والسياسة المختلفة، وربما وجود حالة أحياناً من الصراع الشديد فيما بين هذه الجزر كل هذا أثر على هذه الظاهرة العشوائية ، التي تعد العشوائيات التقليدية جزءاً لا يتجزأ منها .

## الجذور التاريخية

هل العشوائيات والعنف في القاهرة ظاهرة حديثة أم قديمة؟ ثقافة أى مجتمع هى محصلة الأفكار السائدة بين أعضائه ، وتظهر هذه الثقافة في السلوك الجمعى للمجتمع ، والمظاهر الاجتماعية المختلفة بالإضافة إلى درجة ومحصلة التعليم في هذا المجتمع ومدى اتساق هذه الثقافة مع البيئة الجغرافية والمجتمعية التى يعيشها .

ولكل ثقافة مظاهر وأبعاد تختلف من جماعة إلى أخرى حيث تؤثر فيها عوامل عديدة ، لكن لكل ثقافة جذور ضاربة في أعماق التاريخ تختلف من شعب إلى آخر وفق الظروف والأحداث التاريخية التى مر بها كل مجتمع حيث إن هذه الظروف والأحداث تشكل العديد من مكونات الثقافة في أى مجتمع .

وفي صدد جذور ثقافة ساكنى العشوائيات البسطاء فإن أول سؤال يتبادر إلى أذهاننا هو : هل يمكن اعتبار الثقافة الشعبية مصدراً معرفياً لدراسة التاريخ ؟ بالطبع لا يمكن بحال من الأحوال اعتبار الثقافة الشعبية مصدراً من المصادر المعرفية لدراسة التاريخ حيث إن توظيف هذه الثقافة كمصدر معرفي لدراسة التاريخي يوجه إليه العديد من الانتقادات منها :

أنه يصعب تحديد النشأة التاريخية لبعض عناصر الثقافة الشعبية، وبالتالي يصعب إيجاد ربط منطقي بينها وبين فترات تاريخية بعينها ، يمكن اعتبار هذه العناصر انعكاساً وتصويراً لبعض أبعادها الاجتماعية والحضارية لكن هذا لا ينفي أنه يمكننا تحديد بعض عناصر الثقافة الشعبية التى ترجع إلى حقبة زمنية بعينها فثمة عناصر ثابتة ومتغيرة نسبياً يمكن إرجاعها إلى مراحل تاريخية بعينها كالعصر الفاطمي أو العثماني أو الاستعمار الأوربي .

ويؤكد د. عبد الباسط عبد المعطى في كتابه حول ( التدين والإبداع ) أن الوعي الشعبى في مصر على أن الثقافة الشعبية بخصائصها وإنتاجها وهما تحمله مضامينها من معلومات اجتماعية وسياسية وحضارية واقتصادية حول الجماعة

التي أنتجتها أو تبنتها يمكن أن تثرى وعينا التاريخي بما تعطيه من معلومات تعين في دراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والحضاري للمجتمع ككل كما أنها تسهم في صياغة افتراضات علمية حول الشخصية الجماعية العربية بصفة عامة يسهل اختبارها علمياً .

فبالإضافة إلى المصادر التاريخية المعروفة والمألوفة مثل الحوليات التاريخية وكتب المؤرخين وكتب التراجم والطبقات هناك مصادر تاريخية أخرى للثقافة الشعبية وثقافة الفقراء منها كتب الرحالة سواء الأجانب أو العرب والكتب الأدبية والملاحم والسير كتب الأمثال ، وهذا بالإضافة إلى ما تناقله الناس من مآثورات وسلوكيات تعبر عن مضامين هذه الثقافة .

والمجتمعات والحضارات التي تظهر على مدى التاريخ في سائر أنحاء العالم كان بينها نوع من التأثير والتأثر والتواصل في الوقت نفسه، فكل حضارة تُبنى على ما سبقها من الحضارات ، لذلك نرى العديد من المؤثرات في كل حضارة وهذه المؤثرات غالباً ما تكون من حضارات سابقة إضافة إلى المؤثرات المحلية والإقليمية .

فمنذ بدايات التاريخ وتأسيس نظام الأسرات في مصر وُجد نظام طبقى في مصر القديمة فشكّلت طبقة الحكام الطبقة العليا في هذا النظام ، بينما كان الكهنة وكبار الموظفين والكتّاب في مرتبة تلى الحكام ثم بقية الشعب في طبقة واحدة وكان الفقراء يشكلون شريحة مهمة من شرائح الشعب ولكن في معظم الفترات كانت الطبقة العاملة أو الفقيرة تؤمن بأن الملك الجالس على العرش هو القائد وهو صاحب السلطة في إدارة شئون حياته بالكامل ويثق فيه ثقة كبيرة.

و بالتالى نجد أنه كان من الأفضل للملك أن تكون سلطته مطلقة ولكن عليه أن يعمل لصالح شعبه ويسند النظام له مسئولية كبيرة فكان المصرى يخلص لهذا الحاكم إخلاصاً كاملاً ويضحى بكل شئ ويعمل كل شئ لهذا الحاكم .

طبعاً هناك فترات كان يحدث فيها خلل اجتماعي نتيجة استغلال الطبقة العليا للفقراء والكادحين فيحدث نوع من الاضطرابات وشكل من أشكال الثورة مثلما حدث في نهاية الدولة القديمة حيث حدثت ثورة اجتماعية أيضاً في نهاية عصر الدولة الحديثة نتيجة خلل أو عدم قيام الدولة بواجباتها فحدثت سرقات تُعرف باسم " سرقات المقابر " .

إذ أن المصري يقدر السلطة الحاكمة طالما تعمل لصالحه ومخلصة له وبالتالي يعطى عطاءً بلا حدود وهذا بالتالي يفسر الإنجاز الضخم الذي قام به المصريون القدماء ، فقد كانت الإدارة إدارة منظمة وقوية وحاسمة ومخلصة في الوقت نفسه.

وترتب على هذا إنجاز العديد من المشروعات الضخمة التي كانت شيئاً عادياً بالنسبة للمصري القديم وليس كما يقال بأن ناساً من عوالم أخرى هي التي أتمت هذه الإنجازات أو غيرها ، وإنما كان وراء ذلك جهد منظم ومخلص ، وحقق ما حققه المصريون القدماء ، والواقع أنه يمكن بالفعل تحقيق العديد من الإنجازات في أيامنا هذه شريطة توفر الإخلاص والعزيمة القوية والتنظيم والعلم القائم على المعرفة والذي كان يمتلكه المصريون القدماء .

ومن أكثر فترات التاريخ المصري القديم بروزاً من حيث التغيرات السياسية والاجتماعية هي فترة الهكسوس ، فقد تعرضت لهجمة قوية وشرسة لم تكن تتوقعها ، وهي هجوم جنس غاز قوى يمتلك كل مقومات القوة جاء في شكل جحافل بأعداد ضخمة ، وقد عرفوا بعد ذلك باسم الهكسوس ، ويبدو أنها كانت هجرة شعبية من أواسط أوروبا ، وقد اجتاحت تقريباً كل منطقة الشرق الأدنى القديم وخربتها تقريباً ، ونزلوا مصر واحتلوها ؛ لأن مصر كانت من أغنى دول المنطقة ، وقد استقروا في منطقة شرق الدلتا ، وبدءوا تدريجياً في الاستيلاء على المدن المصرية واحدة تلو الأخرى حتى وصلوا طيبة ، التي كانت إمارة مستقلة منفصلة ، فقاومت أمام الهكسوس .

ويبدو أن أهل طيبة بعد فترة من الفترات جاءتهم النزعة الوطنية ورؤوا بالفعل يستعدون ويحملون السلاح ويقوون أنفسهم تدريجياً حتى شعر الهكسوس بذلك فتحرشوا بهم ، وأرسل ملك الهكسوس رسالة فيها نوع من الاستفزاز فيها فكرة خبيثة تقول لهم " إن أصوات أفراس النهر تزعجني ولا أستطيع النوم " ، ويطلب التخلص منها ، وحاول حاكم طيبة أن يتفادى هذه المشكلة بشكل ودي وأكرم رسول الهكسوس .

لكن لم يكن هناك شك في أن الهكسوس كانوا ينوون الحرب ، ويذكرنا هذا بإسرائيل ومحاولاتها لاستفزاز مصر وغيرها من جيرانها للدخول في حرب ربما لا تكون في توقيتها ، وهذا هو ما حدث بالفعل ، ولكن المرحلة الأولى انتهت بالهزيمة .

العادات الاجتماعية كثيرة جداً في تلك الفترة عرفناها عن المصريين القدماء منها بعض القصص الحقيقية المرتبطة بتلك الفترة التي تطلق عليها اسم فترة " الرعامسة " أو عصر الدولة الحديثة التي هي بالفعل أكبر فترة وأشد فترات الحضارة المصرية في المصريين القدماء.

ومن الملاحظ أن أبرز سمات مجتمع الفقراء في مصر القديمة هو الشكاية والتي لا تزال ممتدة إلى عصرنا هذا في صور متعددة كان منها العرضحالات والشكاوى وغيرها ، ويوجد نسخ من كتاب أطلق عليه علماء الآثار والمؤرخون اسم " شكاوى " الفلاح الفصيح ، ويرجع تاريخه إلى الدولة الوسطى ، ويتلخص موضوع هذا الكتاب في شخص فصيح يدعى " حنيت " ألقى تسع خطب في ثوب شكاوى تعد من أبدع وأروع ما قيل بسبب حادث ظلم وقع عليه .

وتقع حوادث الكتاب في عهد الملك " نب كاورع " أحد ملوك مدينة هراكليوبوليس ( أهناسيا حالياً ) وهذه الشكاوى توضح لنا النظرة المتبادلة للطبقة الحاكمة والفقراء ، حيث تشكى الرجل من أنه وجد مخازن قريته خاوية من الغلال فحمل محصول القرية واتجه إلى أهناسيا.

وفي الطريق قبض عليه أحد موظفي البيت الكبير واستولى على حميره بحجة أن هذه الحمير أكلت بعض سنابل القمح ، وكانت هذه سبباً في ضربه واغتصاب حميره ، ومكث أمام بيت الموظف أربعة أيام ليرد له حميره دون جدوى ، وقد سمع حنيت بعدالة كبير موظفي البيت الكبير ويدعى " رنزي " فذهب إليه وقصّ عليه القصة ، فاجتمع رنزي بكبار موظفيه الذين وقفوا إلى جانب زميلهم ، فلما علم حنيت بذلك قرر الذهاب إلى رنزي والتحدث إليه بفصاحة كقوله : " يا عظيم العظماء ، يا حكم على ما قد فنى وما لم يفن .. إنك أب لليتيم وزوج للأرملة وأخ المهجور ومئزر لذلك الذى لا أم له .. دعنى أجعل اسمك في هذه الأرض فوق كل قانون عادل".

وقصة الفلاح الفصيح على الرغم من بساطتها فهي تعطى صورة مهمة عن رؤية الفقير للطبقة الحاكمة ، فهو يقول مثلاً : " ليس الخوف منك هو الذى جعلنى أشكو إليك .. إنك تملك أرضاً في الريف ومكافأتك في ضياع الملك وخبزك في المخبز والحكام يعطونك .. ومع ذلك تغتصب فهل أنت لص ؟ " فالقصة تصور لنا المجتمع من وجهة نظر أحد الفقراء الذى يرى في رجال السلطة مجموعة من اللصوص لا يشبعون مهما امتلكوا من أملاك " .

ونرى نموذجاً آخر من الشكاية في نصائح بتاح حتب يجسد لنا رؤية المصرى القديم للواقع الذى كان يعيشه البعض من الفقراء الذين يتعرضون لظلم الطبقة الحاكمة ، فلا يجدون ملاذاً سوى استحضار آلام الماضى وكيف انتهت على الرغم من شدتها ، كما يرى أن الموت هو الخلاص من هذه المظالم ، ونرى في هذه الرؤية انعداماً للتطلع إلى مستقبل أفضل ، أو على الأقل تمنييه ، فهو يستحضر الماضى للتأسى به ، ويرى في المستقبل موتاً يُخلصه مما هو فيه ، بينما لا يرى في المستقبل شيئاً يستحق الحياة ، لهذا فهو يشكو للإله في الآخرة من المظالم التى تعرض لها .

أما فكرة التمسك بالوظيفة الحكومية ( الميرى ) والمثل الشهير " إن فاتك الميرى اتمرغ في ترابه " هذه الفكرة ذات جذور مصرية قديمة ، ففي إحدى الرسائل من أب إلى ابنه يقول له : " بلغنى أنك أهملت دراستك وسرت وراء ملاهيك ، فهل تريد أن تكون فلاحاً تشقى وتكدح ، فلا تكن فلاحاً ولا جندياً ولا كاهناً بل كن موظفاً يحترمك الجميع ويمتلى منزلك خدماً وحشماً وتترجع في مجلس الثلاثين إلى جانب الملك "" .

كما نلاحظ أمثلة أخرى والتي لها جذور تاريخية ترجع إلى العصر الفرعوني ففكرة الموسمية التى تتسم بها حركة البيع والشراء لها جذور تاريخية فحياة المصرى القديم كانت معظمها أعياداً ومواسم منها ما هو مرتبط بالسنة المصرية نفسها والتقويم المصرى القديم كعيد رأس السنة وعيد بداية الشهر وعيد منتصف الشهر وعيد النسيء وأعياد القمر .

ومنها ما هو مرتبط بالحوادث الزراعية مثل البذر والحصاد والفيضان وعيد الحريق الكبير والصغير وقت الدفء وعيد خروج الإله منين في وقت الحصاد .. ومنها ما هو مرتبط بالملك مثل عيد تتويج الملك والأعياد الدينية وكانت الحياة الاقتصادية تنتعش في هذه المواسم والأعياد.

فهذا الميراث التاريخى الممتد من أعماق التاريخ الفرعوني القديم ما زلنا نجد آثاره في حياتنا اليومية ، وامتدت المؤثرات الفرعونية فنراها في لغتنا وأمثالنا وعاداتنا ، فهناك تأثير الكتابة الهيروغليفية في كثير من الكلمات الفرعونية التى لا تزال باقية حتى الآن ، حتى أن الباحثين قاموا بعمل دراسة على الأمثال الشعبية فوجدوا أن (250) مثلاً مصرياً من أصل فرعوني من حيث المتن والفكرة ، وأيضاً من حيث موضوع المثل فمثلاً نجد مثلاً يقول ( إن حبتك الحية اتلفح بيها . وإن حبك تعبان اتلفح بيه ) وهذا مثل فرعوني لفظاً ومعنى .

كما يمكننا القول بأن اللهجة المصرية أقرب ما يكون إلى اللغة العربية لكن بها اشتقاقات من لغات أخرى متأثرة بما مرت به مصر خلال تاريخها الطويل ، فنجد اللهجة العامية فيها الكثير من الكلمات الفرعونية من مفردات وأمثال شعبية على سبيل المثال : بعب ، بخ ، أوأ ، رخ ، بيصارة ، تاتا ، بشبش ، كاني وماني ، صهد نُقرة .. الخ .

وقد كان مناخ التأثير والتأثر بين مصر وجيرانها أو حتى مستعمرها موجوداً بين الجانبين إلى حد كبير ، فالرومان والإغريق تأثروا بالحضارة المصرية القديمة وأثرت فيهم هذه الحضارة وهناك الكثير من الدلائل على هذا .

وقد ترك اليونانيون أثرهم في الكلمات التى لا تزال مستعملة إلى الآن والإغريق بالذات لم يجلسوا في المدن الكبيرة فقط مثل الإسكندرية ولكنهم ذهبوا إلى أبعد فقد ذهبوا إلى الريف والأقاليم والقرى ، ونحن نرى العديد من القرى والمدن التى تحمل أسماء إغريقية حتى يومنا هذا ، يقال مدينة ( أبو تيج ) وهى أصلاً كلمة يونانية ، والاسكندرية نفسها كلمة يونانية والمدن التى تنتهى بالمقطع ( بوليس ) هى يونانية بمعنى مدينة مثل هليوبوليس ( عين شمس ) .

وفي اللاتينية أيضاً هناك مؤثرات حضارية فيما يتعلق بالحضارتين المصرية القديمة واللاتينية ، فنجد العديد من الكلمات اللاتينية في اللهجة المصرية منها على سبيل المثال لا الحصر كلمة " بساريا " المستخدمة في العامية لتمييز نوع صغير من السمك وهذه الكلمة لاتينية وتعنى السمك ، أما كلمة " فالصو " التى تستخدم في العامية للدلالة على المعدن المزيف أو المقلد فهى كلمة لاتينية .

وهذا الخط نفسه مختلط بالحضارة المصرية القديمة ، فقد أتى الإغريق الذين عبدوا إيزيس في الحضارة المصرية القديمة ، لذلك نرى إيزيس موجودة إلى يومنا هذا في الحياة المصرية مع العلم أن إيزيس الموجودة في يومنا تجمع ما بين عناصر مصرية فرعونية وعناصر إغريقية.



فالشخصية المصرية بصفة عامة شخصية منفتحة على جميع الحضارات ولديها قدرة رائعة على المرح والتوفيق بين الأفكار ، ولهذا فإن الحضارة المصرية القديمة احتضنت الحضارتين الرومانية والإغريقية ، وأيضاً أثرت فيهما تأثيراً قوياً لكنهما مع ذلك قد ذابا فيهما وليس العكس تلك هى سمة الشخصية المصرية أنها تؤثر وتتأثر ولا تتغير ، فالحضارة المصرية القديمة واليونانية أثرتا على الحضارة اللاتينية وهكذا.

ومن التأثيرات القوية مثلاً إيزيس المصرية ولكن دخلت فيها بعض العناصر اليونانية أى بعض التجديدات فيها ، حيث قام الرومانيون ببناء معبد خاص لها في أسوان واسم هذا المعبد " أنس الوجود " وسوف نلاحظ اختلاطاً في الحضارات الثلاثة : الفرعونية والرومانية والإغريقية في هذه القصة ( إيزيس وأوزوريس ) .

ولم تتأثر مصر من الرومان واليونانيين في مجال الزراعة ، لأن مصر كانت رائدة في هذا المجال بل إن المصريين القدماء قد أعطوا الحضارة إلى اليونانيين والرومانيين الكثير في هذا المجال منها الأبراج الفلكية والتي لا تزال مستعملة إلى اليوم ، فهناك برج الدلو والثورة وغيرهما ، وهى كلها أبراج متصلة بمواسم الزراعة المصرية ، فبرج الدلو مثلاً كان علامة على موعد الري ، بينما الثور للدلالة على موسم الحرث .

ومن الغريب أن اللهجة المصرية يوجد بها العديد من التعبيرات الإيطالية رغم أن الطلاينة لم يحتلونا ، فمثلاً ( كاتينة - سلسلة - أسلكه - سقالة - بوليصة تأمين - خرطوش - رصاصة ) لكننا يمكن أن نفسر ذلك في إطار بعد البحر المتوسط لمصر ، حيث كان هناك تبادل تجارى بين الموانئ المصرية والموانئ الإيطالية خاصة جنوة والبندقية ، كما كانت هناك جالية إيطالية تسكن في الإسكندرية والقاهرة ، وغيرها من المدن المصرية.

كما نجد أيضاً في لهجتنا المصرية مؤثرات فارسية وتركية ، وهى من بقايا الوجود العثماني في مصر والذي استمر حتى أوائل القرن العشرين ، وبالطبع فإن اللغة التركية العثمانية نفسها بها بعض المؤثرات الفارسية التي انتقلت إلينا عبر اللغة التركية ، فهناك مثلاً الكلمة العامية المصرية " ألاضيش " لتدل على زمرة معينة وهناك كلمة فارسية " يولداش " بمعنى الصبي أو المتدرب.

كما نجد العديد من المؤثرات السامية في الأدب الشعبي المصري ، لعل من أهم هذه المؤثرات هى خرافات الجن والشياطين والعفاريت فترجع أغلب معتقداتنا وتصوراتنا التي لا تزال تتواتر في مجتمعاتنا المعاصرة عن الجن ومواطنهم ومصاهراتهم للإنس وقبائلهم ، وكذلك الغيلان والسعالى والسلعوة والعفاريت والرياح والنداهات والنفرات وسكان ما تحت الأرض .. الخ ، وهى تنحدر بكاملها من العرب البادئين ، الألف الرابع قبل الميلاد وبشكل خاص سكان اليمن الجنوبيين القحطانيين .

وحكاية الجن برمتها هى فكرة عشتورية بمعنى أنها جاءت من الحضارة السومرية كما أنها متصلة بفكر الإله الأنثى القمرية والتضحية بالأب الذكر وكان الجن من المعبودات العربية لهذا كانوا يحرمون أماكن شاسعة لا يقربون منها اعتقاداً منهم أن هذه الأماكن كانت موطن الأسلاف من الجن " وادى برهوت " و " بيرين " و " صهيد " التي اعتقدوا أنها أماكن عاد وثمود ، ومن هنا جاءت فكرة اعتبار القبور والأماكن المهجورة والخرابات العامة مواطن للجن والعفاريت .

وفي قصيدة جلجامش والعالم الآخر نجد أن الشيطانة " ليليت " تسكن الخرائب والأماكن المهجورة ، وليليت كلمة آشورية بابلية معناها أنثى العفريت أو الريح وقد تحولت الكلمة بعد ذلك إلى " ليل " لتدل على العفريته التي تسكن الخرائب والأماكن المهجورة ليلاً ، ويبدو أن ليل هى الاصطلاح الغريب المنتشر في الغناء الشعبى " ياليل يا عين " .

وإذا ما انتقلنا إلى الحديث عن الجذور العربية والإسلامية لثقافة سكان العشوائيات والفقراء القاطنين تلك المساكن نجد أن أهم ميزة تميزت بها الحضارة العربية الإسلامية هو استفادتها من المنابع الحضارية التي عاشت في المواطن التي كوّنت أجزائها إمبراطورية العرب والمسلمين، فالإسلام الذي كشف عن ميزات العنصر العربي قد استلهمت موجته الحضارية الشابة خير ما في حكمة الصين وفلسفة الهند وسياسة الفرس بل وتراث اليونان ثم أخذ يضيف إليها من نواحي عبقرية المصريين .

هذه الميزة التي امتازت بها الحضارة العربية الإسلامية مردودها إلى الطابع التحرري الذي حكم بناء الدولة العربية منذ الفتوحات الإسلامية الأولى ، وهو طابع جعل من هذه الدولة الوارث الشرعى لثمرات الأمم المقهورة ، فلم تكن بيزنطة قوة القاهرة تفرض طابعها الحضارى ومذهبها الدينى على الآخرين حيث غلب على المسلمين الموقف الوسط الذى يرفض التطرف ويقبل التعددية والقيم المتنوعة مما أتاح مناخاً للتفاعل والائتلاف حتى صارت بناء حضارياً متميزاً .

وعلى هذا يمكننا أن نقول إن الحضارة العربية والإسلامية احتضنت الفقراء والمستضعفين الذين كانت تعتبرهم أهم أولوياتها فوفرت لهم سبل العيش الكريم ، وكان لهذا الاحتضان جذور دينية فقد أتى الإسلام وحرر العبيد وحضَّ على مساعدة الفقراء ووضع الزكاة كركن أساسى من أركانه ، وهذه الزكاة هى شكل مهم من أشكال التكافل الاجتماعى لمساعدة الفقراء ، وعلى هذا فإن مساعدة الفقير هى بُعد مهم وأساسى للحضارة الإسلامية .

وحينما كانت الدولة الإسلامية قوية كان الفقراء ، ينظرون إلى الخليفة باعتباره الأب الروحى لهم ، فهو القابض على زمام الأمور ويستطيع أن يرد الحق إلى أصحابه .

وهناك الكثير من الموروث الثقافي للفقراء يرجع في جذوره إلى العصور الإسلامية المختلفة ففي العصر الفاطمي وفي عام 398 هـ بالتحديد اختلت الأحوال الاقتصادية في مصر نتيجة الاضطراب في أسعار العملة ونقص فيضان النيل وانتشر الفقر بشكل كبير في مصر ، فاجتمع الفقراء البؤساء بين القصرين واستغاثوا بالحاكم بأمر الله الفاطمي أن ينظر في أمورهم ، فما كان منه إلا أن أقسم لهم بالله أنه سيمر بالشوارع بحماره وإذا وجد موضعاً يطؤه حماره مكشوفاً من الغلال ليضربن عنق من يقال إن عنده شيئاً منها ويحرقن داره وينهبن أمواله فخاف الجميع وكل مَنْ في بيته شيء من الغلال شؤنه في الطرقات .

وهذه القصة تجرنا إلى سلوك ما زلنا نحرص عليه ، فكرة التخزين بمعنى تخزين الحبوب والمواد الغذائية بكميات تكفي لعدة شهور ، فهذه الفكرة أيضاً لها جذور تاريخية ترجع إلى العصر الفرعوني أو ربما أقدم من ذلك حيث إنها مرتبطة بفيضان النيل ونحن نعرف قصة رؤيا فرعون والسنوات العجاف فنحن نخاف من الغد أو بمعنى آخر نخشى غدر النيل ، فنقوم بتخزين السلع التموينية لمجرد إشاعة فرها لا نجدها غداً .

لكن مع ضعف الدولة العربية الإسلامية وبداية الأطماع الأجنبية بداية من الحروب الصليبية والتي كانت نتيجة لحالة التشردم التي كانت عليها الدولة الإسلامية فطمع فيها الآخرون ، وبدأت أولى مراحل الاستعمار بالاستيلاء على عدد من الإمارات الإسلامية في العراق والشام ، ثم توالى الحملات الصليبية وحاولت غزو مصر لكنها فشلت في ذلك .

لكن وجود محتل أجنبي على أرض عربية إسلامية أوجد في العقل الجمعي لهذا المجتمع فكرة ورثوها عن العرب وهى فكرة عنترة أو المخلص الذى سيخلصهم من هؤلاء الغزاة ، وحينما ظهر صلاح الدين الأيوبي وخلص بيت المقدس من أيدي الصليبيين صار في أعينهم عنترة جديداً .

العشوائيات ظاهرة قديمة جداً، منذ إنشاء القاهرة وليست من القرن الماضي. كذلك العنف الاجتماعي ظاهرة قديمة جداً وأنه يأخذ أي - العنف الاجتماعي-سمات محددة هي هبّات عنيفة تقوم على النهب والسرقه والإتلاف والحرق أساساً هذا قائم منذ ألف سنة على الأقل، بل أكثر من ذلك، وأستعين في هذا بحكايات المؤرخين المصريين، وقد كانوا شهود عيان، وكانوا أتقياء "مش كدابين" بالإضافة إلى عدد من كتب الرحالة المسلمين الذين كانوا يفدون من الأندلس والمغرب، قاصدين مكة المكرمة عبر الطريق البحري من الإسكندرية فالسويس براً ثم الأراضي المقدسة، يوجد أيضاً عدد من الرحالة الأجانب الذين أقاموا في مصر أيام المقريزى والبغدادى تقريباً ، وحتى أوائل القرن العشرين أو بعده .

لم يعرف المصريون قبل الفتح العربي الإسلامي عاصمة لمصر، في هذه المساحة التي تحتلها العاصمة المصرية منذ الفتح العربي، كانت العواصم إما جنوباً قليلاً أو بعيداً، وإما شمالاً قليلاً أو بعيداً، أو في الإسكندرية، ويبدو أن مخططي المدن المصريين كانوا يتعدون عن هذه المساحة المكانية الجغرافية لسوء مناخها.

وهو ما أثبتته كتابات كثيرة فيما بعد، لدرجة أن كتابات عديدة متلاحقة تروى أن الأطفال الأجانب لم يبق منهم على قيد الحياة طفل واحد في القاهرة ويلاحظ أن العرب المسلمين الفاتحين قد خططوا أول عاصمة عربية إسلامية في حزن حصن بابلون وبعض الأديرة القبطية على الشاطئ الشرقي للنيل وفي حماية تلال المقطم، والعواصم الثلاث بعد الفسطاط قد انتهجت نفس النهج من الشمال الشرقي للقاهرة. مع ملاحظة هامة تغيب عن بال كثيرين أن مجرى النيل لم يكن كمجراه الحالي، بل كان إلى الشرق ، وقد أثبت على مبارك في القرن التاسع عشر أن النيل كان يجري قبيل الفتح العربي الإسلامي عند المنطقة التي يقع فيها الأزهر الشريف حالياً.

وكما يقرر "جمال حمدان" فقد كان ينسحب غرباً بالتدريج وقد أوقف هذا الانسحاب نهائياً وإلى الأبد بإنشاء السد العالي، ولذلك عجز العرب الفاتحون بعد احتلال الفسطاط عن العبور إلى منطقة الجيزة اثني عشر سنة ، ولما استطاعوا فتحها عن طريق الكباري المعلقة بالسفن سميت بالجيزة، ( من اجتاز يجتازوا ) .

وكانت وصية الخليفة عمر بن الخطاب لقائده عمرو بن العاص ألا يجعل العاصمة المصرية يفصل بينها وبين شبه جزيرة العرب بحر ، فالعرب أمة برية وليست بحرية .  
عندما أنشئت الفسطاط والقطائع والعسكر وحتى القاهرة المعزية، أنشئت كمدن عسكرية أساساً ، فلم تكن تحوي الكثير من المصريين، ربما بعض الرهبان أو الحرفيين "أعداد قليلة" ، ولكن يمكن تصور أن الكثيرين من المصريين القبط من أرياف مصر القريبة من هذا الموقع الجديد، قد هاجروا لخدمة الجيوش الغازية أو الفاتحة ، فضلاً عن القبائل التي هاجرت أو هجرت بعد الفتح، فقد تمصروا واتصلت العواصم القديمة فيما بينها وأصبحت عاصمة مركزية، كما يقرر جمال حمدان، كرأس كاسح لجسد كسيح. هذه هي الملامح العامة باختصار.

يقول - ابن سعيد - الرحالة الأندلسي الذي جاء إلى القاهرة ومصر، مصر العتيقة مصر الفسطاط، في القرن الحادي عشر الميلادي، أي بعد إنشاء القاهرة بخمسين عاماً، إنه يفرد وصفاً تفصيلياً عن فسطاط مصر وقاهرة المعز في عهده سواء من حيث الخطط العمرانية أو السكان ويصف تجربته في الخروج من القاهرة في سعيه إلى مشاهدة الفسطاط فيقول : "" ولما أقبلت على الفسطاط أدبرت عني المسرة وتأملت أسواراً مثلثة سوداء وآفاقاً مغبرة ودخلت من بابها وهي دون غلق يفضي إلى خراب معمور بمبانٍ مشتتة الوضع غير مستقيمة الشوارع .. وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف ويغض طرف الظريف.

فسرْتُ إلى أن انتهيت إلى المسجد الجامع فعانيت من ضيق الأسواق حوله ما ذكرت به ضده في جامع أشيلية وجامع مراکش ، ثم دخلت إليه فعانيت جامعاً كبيراً قديم البناء غير مزخرف.. وأبصرت العامة قد جعلوه معبراً ، خطاه لأقدامهم يجوزون فيه من باب إلى باب ليقرب عليهم الطريق ."

ثم يشير الرحالة إلى حالة الازدحام الشديدة في القاهرة، فيحكي أنه عاين بنفسه متجولاً في الفسقاط مبنى يبلغ ارتفاعه ثلاثة عشر طابقاً ، وأعتقد أن الرقم ليس مبالغاً فيه، وأن الزحام الشديد كان في القاهرة ومصر ، مصر القديمة ، على مدى الألف سنة الفائتة، على الرغم من أننا نعلم جميعاً أن عدد سكان القاهرة، لم يتجاوز البتة 250 ألف نسمة على أقصى تقدير ، وأن هناك فراغات كثيرة بين الأحياء ، وأن أول خطة عمرانية حديثة قد تم تنفيذها على مدى ست سنوات في الفترة ما بين 1863 و 1869 وأن عهد الخديوي العظيم إسماعيل هو الذي نفذ الخطة.

وُضعت الخطة بواسطة المهندسين المصريين الذين تعلموا في باريس برئاسة على باشا مبارك، وقد لا يعلم البعض أن على مبارك هو خريج معهد تخطيط المدن في باريس، وكان مهندساً مدنياً لا رجل معارف ، وأنه خطط باريس وخطط القاهرة على نمط تخطيط زميله أوسمان لمدينة باريس، هذه هي القاهرة الإسماعيلية التي نراها ونستمتع بها، فالعشوائيات موجودة منذ زمن بعيد ولأسباب كثيرة، هذا عن الشق العشوائي.

الشق الثاني الذي أود أن أشير إليه أيضاً أن الحرافيش أو العوام الذين عاشوا في القاهرة خلال هذه الفترة كانوا يعيدون توزيع الثروة كل أسبوع تقريباً بطرق عديدة، فقد كان يكفي أن يتسرب إلى الشوارع أن الوالي قد غضب أو نقم على أحد الأعيان حتى يبادروا لوضع هذه النعمة موضع التنفيذ فيهمجون على منزله ويستولون على كل ما فيه "حتى أن بعض الكتابات تذكر قيامهم بنزع الأرضيات الرخامية من مكانها" وتوزيعه على بعضهم البعض ، هذا السلوك بالطبع

كان يتفاقم في زمن المحن والمجاعات ، مثل زمن الشدة المستنصرية وغيرها وفقاً لما يحكيه لنا الجبرتي.

بالطبع لم تكن هذه التصرفات مجرد تنفيذ لرغبة سامية أو تحقيقاً لمشئته الوالي بل كانت بالأساس تعبيراً عن نقمة العوام أو الحرافيش واستيائهم من التباين الهائل ما بين أوضاعهم الاجتماعية وأوضاع الفئات العليا من الولاة والتجار وغيرهم. هذا الكلام كلام خطير لأن رد الفعل الجماهيري للعوام المهمشين ، أو إذا شئت الحرافيش رد فعل عنيف وهذا العنف هو السمة الأساسية لتحركاتهم.

لقد تكرر ذلك في أحداث 1952 وتكرر في يناير 1977 بنفس التكتيك وتكرر في 1986 في أحداث الأمن المركزي، فقد انطلقت هذه الفئات التي يصدق عليها توصيف الجبرتي " سكان الحارات الجوانية " ينهبون ويسرقون .

من ناحية أخرى وفيما يتعلق بأبعاد ظاهرة العشوائيات، وهل يمكن اختزالها إلى مجرد أزمة إسكان، فحتى في الأربعينيات كانت هناك أزمة في وجود شقق بالإيجار ، وهو ما دفع الملك فاروق "رحمه الله" في عام 1943 إلى مد أثر عقود الإيجار بالمخالفة لقانون الإيجارات، معنى ذلك وجود أزمة، أي أن هناك أزمة موجودة، وتزايد، إنما العشوائيات أو بالأحرى إشكالياتها الحالية في بعض أبعادها في انعدام التجانس واختلاف الفئات والشرائح الاجتماعية القاطنة في العشوائيات.

وفي مصر العثمانية كانت الفجوة تتسع بين الفقراء والأغنياء ، لهذا يمكن اعتبارها نقطة توقّف مهمة في دراسة ثقافة الفقر حيث تبلورت العديد من محددات هذه الثقافة في هذا العصر ، فيرى المؤرخ الفرنسي (أندريه ريمون ) أن الفجوة بين الفقراء والأغنياء في القاهرة كانت واسعة، لذا رأت الطبقة الحاكمة أنه من الضروري أن توجد مجموعة من المؤسسات يكون من شأنها تخفيف المعاناة عن هؤلاء الفقراء على الأقل في أوقات الأزمات الاقتصادية .



ففي أثناء المجاعات كان الباشا يحمل على عاتقه إطعام عدد معين من الفقراء ويحض الأمراء على أن يحذوا حذوه ، ولم يكن هذا السلوك ابتكاراً عثمانياً بل سوابق في العصر المملوكي وما قبله ، ففي مجاعة عام 1107هـ / 1695م أطعم إسماعيل باشا 100 فقير ، وأطعم كل أمير ما بين 100 و 200 شخص من الفقراء كما أعطى كل صبي يتيم قطعة ذهبية ومجموعة من الملابس .

وكان للشحاتين والمتسولين في القاهرة تجمع يشبه النقابة في العصر العثماني وأشهر العلاقات التي نشأت بين تجمع من الفقراء وأحد الأغنياء هي تلك العلاقة التي نشأت بين أحد الأمراء المماليك وهو إبراهيم بك أبو شنب وبين الشحاتين فقد كان هذا الأمير يعرف هؤلاء الشحاتين جميعاً تقريباً ويعرف مقدار ما يمنحه لكل منهم يومياً .

وفي إحدى المرات بعد أن عاد الأمير إلى القاهرة من رحلة طويلة خارجها حضر شيخ الشحاتين ورجاله ورحب به ، وقدموا له حصاناً أصيلاً بتجهيزاته الغالية وفي المقابل منح إبراهيم بك جميع الشحاتين هبات من النقود والملابس وعقد لهم وليمة خاصة . وهذه القصة تعطينا صورة واضحة لأهم فئة من فئات الفقراء وسكان العشوائيات في القاهرة ، وكيف كانت علاقتهم بالطبقة الغنية الحاكمة .

وعلى عكس هذه الصورة التي نجد عليها الفقراء في العصر العثماني نجد المؤرخ الشهير ( عبد الرحمن الجبرتي ) يصف بعض الفقراء بأوصاف لازعة فهو يصفهم أحياناً " بالصرابير " و " الحشرات " بينما يصفهم أحياناً أخرى " بالحرافيش " و " الزعر " .

وهي أوصاف ربما عبر بها الجبرتي عن رؤيته الذاتية لهذه الطبقة من المجتمع التي تأتي بتصرفات ربما لم تكن تعجبه أو تتماشى مع طبقته الاجتماعية ، حيث كان الجبرتي يمثل الطبقة المتعلمة الثرية ، ومن ثم كان يرى في هؤلاء الفقراء

والمعدمين أناساً لا يستحقون العيش في المجتمع المتحضر بما يأتونه من سلوكيات تعبر عن فقرهم .

وقد عبّر يوسف الشرييني في كتابه "هز القحوف في شرح قصيدة أبو شادوف" عن طبقة الفقراء، ويكاد يكون الكتاب وصفاً دقيقاً للفقراء وحياة الفقر في مصر العثمانية .  
فطبقة الفلاحين المصريين هم من أصل سكان مصر عاشوا دائماً في بؤس وشقاء فانتشرت بينهم الأوبئة والمجاعات ، ويصف الرحالة فولني Volney هؤلاء المساكين في القرن الثامن عشر بأنهم كانوا يُعاملون معاملة سيئة فإذا أراد شخص تحقير شخص آخر يطلق عليه لفظ " فلاح".

وكان هذا الفلاح لا ينعم بثمرة جهده ، فزراه منصرفاً إلى العمل كارهأً له ويعيش في فقر مدقع غذاؤه ردىء يصنع خبزه من الذرة وطعامه الرئيسى من الخبز والبصل ، وكان يسعد إذا تخلل طعامه العسل والجبن واللبن الرائب أما . اللحم فلا يتذوقه إلا في المواسم والأعياد ويعتمد على روث الحيوان لإشعال النيران .  
وقد وصف المترجم الفرنسى ( ديون ) الفلاحين الفقراء في مصر في القرن الثامن عشر بأنهم عبيد لديهم ، ولا يثورون ضد أسيادهم الذين ينظرون إليهم كحيوانات ولا يعاملون معاملة إنسانية ، وهذا يعنى أن النظرة إلى الفقراء بأنهم يسكنون إلى الخنوع للحكام هى نظرة لها جذور تاريخية وليست وليدة اليوم .

ويواصل الرحالة الفرنسى ( فولنى ) وصفه للفقير المعدم " كان ملبسه قميصاً من الخام الأسود وعلى رأسه قلنسوة من الكتان يلف حولها منديلاً من الصوف الأحمر ، ويظهر في الحقول عارى الذراعين والساقين والصدر ، وأغلب الفقراء لا يلبسون سراويل ، ومساكنهم من الطين يضيق صدر المرء من غرفها لأنها غير صحية وتكثر بينهم الأمراض الصدرية " .

وخلال القرن التاسع عشر ورغم التغيرات الحضارية التي شهدتها مصر سواء في عهد محمد على أو في عهد خلفائه من بعده لم يتغير حال الفلاح كثيراً ، بل ازداد حاله فقراً نظراً لأن الحكام الجدد ابتدعوا الكثير من النظم التي ضيقت عليه حلقة الفقر ، حيث كان من السهل على الفلاح في العصر العثماني أن يتهرب من الضرائب أو ظلم الفئة الحاكمة ، فكان يلجأ إلى الهروب أو ما عرف وقتئذ بالتسحب .

وللحالة السيئة التي كان عليها الفقراء في القرن التاسع عشر شبههم الرحالة الفرنسي ( شولشييه ) بالهنود الحمر في المكسيك ومنطقة الكاريبي ، بينما شبههم رحالة آخر بأنهم خلية نحل تعمل لغيرها ، ليدلل على العمل الكثير الذي ينجزه الفقراء لأسيادهم ، على الرغم من سوء حالتهم ووضعهم في المجتمع .

وعلى العكس من الفلاحين نجد أن البدو على الرغم من أنهم مُصنَّفون ضمن طبقة الفقراء ، إلا أننا نجد أن فقرهم هذا اختياري حيث يصرون على اختيار حياة الخشونة كما وصفهم الرحالة الفرنسي (سافاري ) في القرن الثامن عشر . وقد برر ذلك بأنهم يعشقون حياة الحرية والترحال ويكرهون الانصياع لسلطة مركزية ورغم ذلك فقد وصفهم سافاري بأنهم لصوص ومتشردون ويعشقون الإغارة على القوافل التجارية التي تمر بأراضيهم .

وهؤلاء البدو والفلاحين في السنوات الأخيرة قد نزحوا إلى المدن واستولوا على الأراضي التي في ظهير المدن وبنوا عليها مساكن خاصة بهم بدون تراخيص وبدون علم الحكومات المصرية المتوالية ، رغم أن تلك الأراضي ملك للدولة وليست بها أى مرافق . أما الفقراء في المدن المصرية فقد كانوا يشكلون شريحة كبيرة من المجتمع ففي نهاية القرن التاسع عشر أحصت مصلحة الصحة التي كانت تهتم برصد بؤر الأوبئة في مصر المساكن العشوائية في القاهرة وحدها فبلغ تعدادها 16200

عشة ، تشغل 10 % من المساحة العمرانية للقاهرة ، وتعداد سكانها حوالى 120 ألف نسمة وهو عدد كبير يمثل ربع سكان القاهرة في نهاية القرن التاسع عشر .

العشش هى مساكن غير صحية بالمرّة ، حيث يمكن تصور أسرة كاملة تعيش في كوخ مكوّن من غرفة واحدة لها فتحة واحدة ومسقفة بالقش وبلا نافذة في كثير من الأحيان .

وفي دراسته في القاهرة في النصف الثانى من القرن التاسع عشر يشير جان لو أورنو أن تركز مناطق العشش في القاهرة في ثلاث مناطق رئيسية هى بولاق والسيدة زينب ومصر القديمة ، كما يخرج بنتيجة مؤداها أن تركز العشش في هذه المناطق دون غيرها كان مرتبطاً إلى حد كبير بالتوسع في النشاط الصناعى في هذه المناطق حيث زاد الطلب على الأيدي العاملة .

وكان حى بولاق وحده يضم ثلثى سكان العشش في القاهرة لتزايد النشاط الصناعى في ميناء بولاق وكان هذا الحى يضم السكان الأشد فقراً في القاهرة . أما ظاهرة سكان المقابر ( الأحواش ) التى بدأت تتضح بصورة أكبر في نهاية القرن التاسع عشر فهى ترجع إلى العصر العثمانى ، و ذكر كتاب ( وصف مصر ) العديد من الأكواخ والمساكن المتداعية التى تدل على إسكان شديد الفقر ومن الواضح أن التوسع العمرانى على النمط الحديث في أحياء مصر القديمة ثم بولاق قد طرد العناصر الأشد فقراً إلى خارج المدينة .

ولا شك أن سكان العشش والأحواش في الأحياء التى ذكرناها في القاهرة لم يكونوا يتركزون بكثافة في أماكن بعينها ، وإنما كانت هذه المساكن متناثرة بشكل عشوائى حتى لا يمكن أن يقال إن هذه التجمعات تشكل تجمعاً جغرافياً واحداً ، لكن طبيعة هذه الفئات والمهن التى كانوا يمتهنونها بالإضافة إلى حالة الفقر التى كانوا يعيشونها قد فرضت شكلاً معيناً من المعيشة ذات سمات تختلف عن باقى الأحياء التى يعيشون فيها .

وإذا ما انتقلنا إلى البحث عن جذور ثقافة الفقر وسكان العشوائيات في الاحتفالات ، والمواسم والأعياد نجد بدايةً السمة الغالبة على المجتمع المصرى هى عشقه للاحتفالات فكل مناسبة جعل منها احتفالاً فهناك نفسه بداية من ميلاده ( السبوع ) وختانه وزواجه ووفاته واحتفالات ذات طابع دينى كالأعياد الدينية والموالد والحضرة ، كما ورث احتفالات وأعياد النيل وأعياد الحصاد وغيرها فقد كتب الرحالة الفرنسى بول لوقا مصر في القرن الثامن عشر : " لا يوجد بلد في العالم مغرم بالاحتفالات مثل مصر ". فهذه المقولة إلى حد كبير تصف جزءاً من الحقيقة وتعبر تعبيراً ضمناً عن طبيعة الحياة الموسمية التى يعيشها المصريون فتنتعش الأسواق وتروج السلع قبيل الأعياد والمواسم في عيد الفطر والعيد الأضحى والموالد المحلية كمولد الحسين والسيد البدوى والسيدة زينب ، وغيرها وهذا الميراث الموسمى في حياتنا لا يزال موجوداً ، حيث تنتعش الأسواق أيضاً قبيل الأعياد ودخول المدارس ، فتقام مهرجانات التسوق والتخفيضات الحقيقية والوهمية .

ففي الموالد بصفة خاصة حيث تعبر بشكل واضح عن ثقافة الطبقات الفقيرة وسكان العشوائيات تنتشر مواكب الدراويش ونترك ( ب . س جيرار ) أحد علماء الحملة الفرنسية يصف لنا موكب مولد الحسين في نهاية القرن الثامن عشر فيقول :

" وتنتشر مواكب الدراويش التى تطوف بشوارع القاهرة وهى تحمل الأعلام والرايات والطبول والموسيقى ، وعندما يمرون بأحد أضرحة المشايخ يكفون عن عزف الموسيقى لقراءة الفاتحة وتلاوة بعض الأدعية ، ثم يستمرون في المسيرة إلى المسجد الحسينى ، وفي الليلة الكبيرة تكثر حلقات الدراويش في المسجد التى تقوم بالذكر وبعضها يؤدى بعض طرق الشعوذة مثل بلع الجمرات المشتعلة أو أكل الزجاج والتهام الثعابين".

إلى هنا ينتهى كلام جيران ، ويمكن أن نخرج منه بعدة ملاحظات :  
أولاً : التزاوج الواضح بين الفقر والدين ، بمعنى إلباس الفقر لباساً دينياً أو العكس ،  
إلباس الدين ثوب الفقر ومظاهره وثقافته .

ثانياً : الجانب العلماني للموالد المتمثل في الأشكال الكرنفالية المصاحبة للاحتفالات  
والاختلاط وأشكال السفور التى كانت تصاحب الاحتفال.

ثالثاً: البعد الاجتماعى المهم للموالد المتمثل في الإحسانات التى يقدمها الأغنياء  
لإطعام الفقراء .

والمهم أن هذه الثقافة التى تجمع بين المصريين هى ثقافة عامة لا تقتصر على  
المسلمين فقط ، بل تمتد إلى الأقباط الذين شاركوا في هذه المظاهر التى توصف بأنها  
خاصة بالمسلمين ، حيث يستكمل جيران كلامه عن الموالد ، فيقول في معرض حديثه  
عن المولد النبوى :

" فالأقباط حريصون على حضور الاحتفالات الدينية ، كما أن المصريين ( يقصد  
المسلمين منهم ) يسعدون بمشاركتهم هذه الاحتفالات والموالد ، كما أن أثرياء الأقباط  
يتبرعون للإنفاق على تجديد أضرحة بعض الأولياء والمشاركة في الاحتفالات " .

إذن ، القضية ليست خاصة بالمسلمين وحدهم وإنما المصريون ككل مسلمين وأقباطاً  
فهذا ميراث احتفالى واضح تماماً في الأغلبية والأقلية ، خاصة الاحتفالات التى تحمل  
مظاهر وثقافة الطبقة الدنيا من المجتمع .

وقد نجد تفسير ذلك لدى ( إدوارد وليم لين ) في كتابه الشهير عن عادات المصريين  
وشمائلهم ، حيث يذكر أن المصريين يتميزون بحبهم للدعابة والسخرية كنوع من  
التنفيس عما يتعرضون له من ظلم وربما أيضاً يمكننا تفسير الغرام بالاحتفالات لدى  
الطبقات الدنيا بنفس المنطق، فهى نوع من التنفيس عما يعانونه من فقر وسوء  
الأوضاع الاجتماعية .

تبقى قضية مهمة وهى قضية تقديس الأولياء وهى ظاهرة مرتبطة بالدين الشعبى إذ أن الإسلام لا يعترف بوجود الأولياء ( الواسطة بين الله والبشر ) وقد انتشرت هذه الظاهرة بشكل واضح في مصر خلال العصر العثمانى وإن كانت موجودة قبل ذلك بشكل جزئى ، وللشيخ عبد الوهاب الشعرانى مؤلف عنوان " ردع الفقراء في دعوى الولاية الكبرى " وهو في هذا المؤلف يحاول أن ينفي حق الادعاء بالولاية الكبرى عن الفقراء .

وقد لاحظ أحد المؤرخين الأتراك وهو رضوان باشا زاده ظاهرة تقديس الأولياء في مصر ، فأشار في النصف الأول من القرن السابع عشر إلى تفتش ظاهرة الإدعاء بالولاية ، وفسر ذلك بأن هذه الظاهرة مرتبطة بالفقر والفقراء الذين يدعون الولاية للحصول على الطعام ، وأنهم جهلاء يدعون العلم بالأسرار الإلهية .

فالمصريون يُوقِّرون المجانين الذين لا ضرر منهم باعتبارهم أولياء طبيعيين يسمح لهم بالتسكع في الشوارع وكان الملاماتية وهم نوع شاذ منهم سيء السمعة نظراً لمظهرهم وسلوكهم الغريب فكان طبيعياً أن يتحول المجانين إلى " مجاذيب".

لكن بمجرد أن يبدأ الولي في جذب الجماهير ويحدث هياج واضطراب اجتماعي أو يتحدى أركان الإسلام يبدأ اصطدامه بالسلطة التي تستجيب لشكاوى العقلاء لإيقاف هؤلاء المجاذيب عن ممارسة المخالفات .

## سمات ومعتقدات ( العامة )

أجمع الكثيرون على إطلاق مسمى العامة على الجموع الغفيرة لأنهم كثيرون لا يحيط بهم الصبر فهم في ستر عنه ولهذه الكثرة نعتوا بالدهماء وأيضاً الغوغاء الذي كان يطلق على الجراد حين تظهر أجنحته فيموج بعضه على بعض ولا يتجه جهة .

ولذلك قال عبد الله بن عباس : " ما اجتمعوا قط إلا أضروا ، ولا افترقوا إلا نفعوا " قيل له : " قد علمنا ما ضر اجتماعهم فما نفع افتراقهم، قال : يذهب الحجام إلى دكانه والحداد إلى كيّره وكل صانع إلى صناعته ، والغوغاء أيضاً هم أهل السفه والخفة ، وهذا التعبير معناه الساقط من الناس والساقط من ليس له فعل موصوف ولا نسب معروف . كما أطلق على العامة السوقة والأوباش والذعار والشراذم ، وقد اختلفت الآراء حول تعريف مفهوم ( السوقة ) فيعتبرها البعض أنها مشتقة من سوق الناس بضائعها ، والبعض يعتبرون أن ليس المقصود به أهل الأسواق ، وإنما سموا السوقة لأن المملوك يسوقونهم إلى إرادتهم .

أما الأوباش فهم الجماعات المختلطة من الناس والكثرة من الناس ، قال الزبيدي: " جاء من الناس البوش " والبوش أى الكثرة والغوغاء أما الزعار والزعرة والزعر جمع زاعر ، وهم اللص والمحتال والعيار والحرفوش والمشرذم . والذعر بالسقم والخوف والفرع ورجل مذعور منذر وامرأة ذعورة تذعر من الريبة وذعر الرجل قل خيره .

والزعارة شراسة الخلق ، وأهل الزعار العيار ون الذين يترددون بلا عمل ويخلون النفس وهواها فهي تقترب من كلمة ذعر التي تعنى الخوف والفرع و التخويف أما الشراذم فهي تأتي من الشرذمة أى القطعة من الشيء أو القليل من الناس .



كما دُمغت العامة أيضاً بالحرافيش والعيّاف والشطار ، وقد ظهرت هذه الجماعات بسبب الانهيار السياسى والاقتصادى وخاصة أوقات الصراع الداخلى بين الجماعات العسكرية خاصة إبان الانقسامات بين الأمراء والمماليك ، وتزايدت هذه الجماعات مع مرور الوقت بسبب أن الفلاحين لا يملكون أيضاً ولكثرة الضغوط والإغارة عليهم هاجروا إلى المدينة لتحسين أحوالهم ، ولكن لم يساعدهم الحظ فوجدوا كثرة الأوبئة والمجاعات فانهارت أحلامهم فقد أدت هذه الأزمات إلى تدهور الوضع الاقتصادى في الصناعات الحرفية فلم يجدوا أمامهم سوى الانضمام إلى هذه العناصر دون وعى بحثاً عن الرزق .

ومن معانيها الفقراء الذين لا يملكون تفرساً للأوبئة والمجاعات ومفردها حرفوش وهو ذميم الحلف والخلق ، وهو المقاتل المصارع اللص ، وحرفش الرجل إذا تهيأ للقتال .

أما عن الحرافيش فهو جمع حرفوش وهو الجانى الغليظ المهيأ للشر السافل والحرافيش كانوا في بدايتهم في العصر الأيوبي ( 569 - 648 هـ ) فرقة قتال شعبية في الجيش الأيوبي اشتهرت بالشجاعة والمروءة والإقدام ، ولكن بمرور الوقت لم يجدوا دورهم في الحياة العسكرية فتحولوا إلى أعمال البطالة .

ويذكر السبكي : " أن كثيراً من الحرافيش اتخذوا السؤال صنعة ، يقعدون على أبواب المساجد يشحذون ولا يدخلون لتأدية الصلاة " ، كما وصفهم ابن بطوطة بأنهم أهل صلابة وقوة .

وكان للحرافيش سلطان ، ففي حوادث ( 793هـ / 1390 م ) توفي السلطان على بن على الجعيدى سلطان الحرافيش الذى كانت له كلمة مسموعة على الحرافيش لم تتوافر لأحد من بعده .

وقد تزايد عدد الحرافيش في شوارع القاهرة بصورة واضحة في أواخر العصر المملوكى يغطون أجسامهم بالأتربة والهلاهيل ، ويتبادلون الصيحات والشتائم العنيفة ، ويتفرقون دون نتائج ، وانتهى الأمر بهم بالإلحاق بالخوانق والرُّبُط

والزوايا بحثاً عن الطعام والمأوى والملبس ، وإن ذلك عطلهم كثيراً عن ممارسة أعمالهم اللصوية .

أما العياق : عاق فلان صدفه بما أراد العائق الذى يعوق الناس من عمل الخير ورجل عوق ( الجمع أعواق ) الرجل الذى لا خير عنده ، وهو المانع الذى يعوق الطريق ويقطعه على الناس .

أما الشطار فمفردها شاطر والجمع شطار ، وهو المتصف بالدهاء والخبث والحيلة والذكاء واللس الشاطر الذكى الذى يستخدم الحيلة في موضع الحيلة والقوة في موضع القوة ، والشاطر لغوياً من أعياء أهله خبثاً ويُقال : شطر على أهله نزع عنهم .

والشطارة : الانفصال والابتعاد وهو أيضاً أهل الدعارة واللصوية ، كان لهم شارة خاصة على صدورهم يعرفون بها ، وكانوا يستولون على أموال الأغنياء وزكاة الفقراء ، كما تمتاز هذه الفئة بالمرح والفكاهة والنوادر الطريفة .

وأما عن مأوى الشُّطار والعيارين فكانت الحمامات والمساجد والطرقات بالإضافة إلى الأسوار وفي العصور الحديثة كانت المقابر ، كما اتسموا بالصبر على الشهوات وتحمل الأذى والضرب وألوان التعذيب .

وكانت لهذه الفئة دور بارز في إثارة الفتن ، كما استخدمها الكثير من الأمراء والسلطين في بعض الأحيان أداة للغدر ببعضهم ، وهذه الفئات جميعها تعنى العامة من الناس لأنهم يشتركون في كثير من الصفات كتدهور الأحوال الاقتصادية والاجتماعية وممارسة أعمال السلب والنهب إبان الفتن والأزمات التى تحدث بين الفلاحين والأمراء ، أو بين الأمراء بعضهم البعض وكذلك اشتركت هذه الفئات في التسول في الشوارع أمام المساجد .

وإذا أردنا أن نتعرف على ثقافة سكان العشوائيات لا بد أن نتعرف على عدة عوامل أنتجوها بمرور الزمن وتأثروا بها على مر العصور .

@booka.

### المعتقدات :

تمسكت الأسرة المصرية وخاصة العوام بكثير من المعتقدات التي توارثتها جيلاً بعد جيل ، حتى أصبحت بمثابة التقاليد الثابتة عند الكثير منهم يمارسونها في حياتهم ، ومنها :

أن معظم العوام " قدريون " يعرفون جيداً أن الحذر لا يمنع القدر والمكتوب ما منه مهروب ، ولهذا فهم كثيراً من الوقت يرضون بحالهم لأنهم يؤمنون بتوزيع الأرزاق بين الناس قضية غيبية شأنها شأن الموت المقدر على الإنسان ولكنه عليه ألا يستسلم لهذا الإحساس ، بل يسعى للرزق ، والمرء يسعى ورزق الله مقسوم .

كما تخوف العامة من الحسد والسحر وخاصة المرأة كانت الأقرب للاعتقاد بالقوة الخرافية للسحر على مر عصور التاريخ ، فكانت تذهب للساحر لتكيد صُرتها أو لتطلب أحجية لتسهيل زواج البنات واستجلاب محبة الزوج وغيرها من الأغراض التي تريد تحقيقها .

ويرى العوام إبطال شر الحسد والسحر بالبخور وخاصة يوم الجمعة بعد صلاة الظهر والأحجية التي تُكتب بها التعاويذ والآيات القرآنية وغيرها من الأعمال الغريبة التي تقى المريض من شر العالم السفلى .

كما ساد لدى العامة التطير والتشاؤم ببعض الأفراد والرموز والأرقام والكائنات مثل البومة ، فهم يعتقدون أنه إذا وُجدت في مكان جلبت الخراب والموت .

وغیرها من المعتقدات الغريبة الخاطئة التي زالت بزوال عصرها ، ففي العصر الأيوبي نجد على الحائط الغربي للقلعة نحت " نسر ناشر جناحيه ومخالبه " اعتقد العامة بأن لهذا الطائر قدرة على التنبؤ بالغيب، وإذا ما صفق بجناحيه ونفخ حوصلته فيعنى هذا أن الخير سيصيب المدينة، أما إذا أطلق صرخة فهو فال سىء للموت أو لكارثة وشيكة .

ولكن إذا أردنا أن نعرف الحقيقة وراء هذه المعتقدات فنرجع إلى الوراء بعصور التاريخ ( حديث . عثمانى . مملوكى . إسلامى . رومانى . فرعونى ) سنجدها كما نجد غيرها زال واندثر ، ولكن البعض منها أصيل يرجع إلى زمن أصيل معتقداته راسخة حتى الآن ، وهو العصر الفرعونى وإن حدث له بعض التطورات حتى يلائم العصر .

### الأخت أو القرينة :

اعتقد المصريون القدماء أن لكل إنسان روحاً أو قرينة تشبهه تمام الشبه أطلقوا عليها اسم ( كا ) تلاحقه طوال حياته ، فإذا مات تسبقه إلى القبر وتظل في انتظاره لتقدم لها المساعدات المختلفة عندما يلاحق بها وقد مثلوها بشكل ذراعين ممدودتين إلى أعلى تتمثل فيها القوة والحماية والبقاء والعطاء .

وحتى الآن يعتقد الناس أن لكل إنسان ( أختاً ) أو ( قرينة ) تولد معه وهى تحت الأرض ، وإذا مسه سوء يقولون أنها غضبت منه ، وعليك أن تصاحب أختك تحت الأرض وذلك عن طريق السحر والشعوذة والأساليب الخرافية .

### وضع القلم خلف الأذن :

كان الكاتب المصرى القديم يضع القلم خلف أذنه بعد أن يُدوّن مذكراته على لوحة الكتابة وتشاهد الصورة منقوشة على أحد جدران قبور الجيزة من عصر الدولة القديمة طيبة إلى عصور الدولة الحديثة ، ولا تزال هذه العمارة حتى الآن واضحة بصورة أكثر بين فناني العوام مثل : الصيارفة والمحضرين والعمال .

### تناول الطعام على الطبلية :

وإذا كان وقت الطعام كان المصريون القدماء يجلسون على الأرض ويأكلون من الطعام الذى أعدوه على الطبلية ، ويشربون من إناء الفخار الذى يشبه ( القلة ) أو من زمزية من الجلد ، بل إن بعض الفلاحين كانوا يعلقون ( قرباً ) من الجلد على الأشجار بها ماء ليبرد ليرووا ظمأهم كما هو موجود في الأماكن الريفية الآن .

### خسوف القمر :

وقد اعتاد البدويون في مصر أن يهللوا أو يبتهجوا عند خسوف القمر وهم يقرعون الطبول والصفائح المعدنية ويحدثون بها دويّاً شديداً يقولون ( إحنا عبيدك يا رب ) يا أولاد الحور سييوا القمر يدور ) ويحدث أحياناً أن يصبو الرجال بنادقهم نحو القمر يطلقونها يعتقدون أنهم يحبطون العدو الذى يحاول الاعتداء على القمر .

### الوشم :

يعتبر الوشم من أقدم العادات التى مارسها ( السومريون ) سكان جنوب وادى دجلة والفرات منذ مطلع التاريخ إذ كانوا يزينون أجسامهم به ، وكثيراً ما يلجأ عامة الشعب الآن إلى وشم بجانب جباههم بشكل عقاب وهو من بقايا تقديس الصقر عند القدماء المصريين ، كما أن بعض البدويات يلجأن إلى وشم ذقونهن بشكل العلامة الهيروغليفية ( نفد ) ومعناها جميل كما يحدث الآن وإن كان الكثيرون يعدوها من مع تطورات العصر وفي العريش يقومون بالوشم على أذرعهم بأشكال مختلفة.

### الطلعمة :

يشتهر المصريون بإكثارهم من الاهتمام بالقبور وزيارتها من حين لآخر ويطلقون على ذلك الطلعمة وخاصة يوم الخميس والأيام الأولى من الأعياد ويوزعون القرابين على الجبانات صدقة ورحمة على روح المتوفي ويأتون بقارئ القرآن ليتلو سورة قصيرة على جبانة المتوفي مع وضع إكليل من الزرع الأخضر والزهور على روحه .

رغم بساطة حالهم يفعلون ذلك ، ورغم أن بعضهم لا يملك من يومه سوى ما يشتري له هذه الهدايا للمتوفي وغالباً تكون الزوجة أو أمه أو ابنة المتوفي ، وكما يلاحظ أن الذى اهتم بالطلعمة هن السيدات ، ومن الغريب أن الجبانات تكون مكاناً لتبادل الحكايات عن بعضهن والسخرية وبها الكثير من النوادر .

وتجد النساء أثناء وجودهن في الجبانات يكيبن بالدمع الغزير ويندبن ويلطمن ويصبغن وجوههن بالنيلة ، تماماً مثل ما كانت تفعل المرأة المصرية القديمة منذ 5000 عام مثلما فعلت الإلهة " إيزيس " عندما بكت زوجها الإله أوزوريس بكاءً مُراً.

### ذكرى الأربعين للميت :

وقد اتخذت عن الفراعنة ذكرى الأربعين للميت ، وتُرى أسطورة الإله أوزوريس أن أخاه "ست" قد حقد عليه وقتله ومزقه إلى أربعين جزءاً ورمى كل جزء منها بإقليم من أقاليم الوادى الذى كان عددها في ذلك الوقت أربعين مقاطعة . وقد أقام المصريون للإله أوزوريس بعد أن أصبح إلهاً للموتى والاستشهاد أربعين قبراً لكل جزء من جسمه قبر خاص يحج إليه الناس من كل حذب وصوب لينال البركة منه ، وقد بقيت هذه الأجزاء من التحنيط مدة أربعين يوماً .

ومنذ ذلك الحين والفراغة يحنطون موتاهم ويبقونها أربعين يوماً ويعالجونها بمختلف الأنواع من العقاقير ويلفونها بالأقمشة الكتانية ثم يشيعونها بعد ذلك إلى مثواها الأخير باحتفال جميل .

### الزواج المبكر :

إلا أن هذه الظاهرة بدأت تندثر من وقت لآخر بعد تعليم البنات على العكس من القرى فتعد أقصى أمنية للمصري أن يزوج أولاده صغاراً متأثرين بحكمة من أحد حكماء المصريين القدامى ( تزوج وأنت شاب حتى تنجب وتعيش وترى أولادك رجالاً ) .. رغم أن ثقافتهم لم تصل بهم إلى حد هذه الحكمة إلا أنهم ورثوها عن أجدادهم . والدليل أن للعامة ثقافة لا يعرفها المثقفون إلا بقراءة الكتب الدالة عليها فهم ورثوها جيلاً بعد جيل ، لأن العامة يمتازون بالحكايات والاستعراض بما لديهم من معلومات ومساعدة الناس .



@booka.

## المهّن في العشوائيات

لقد تغيّر السكان ، ففي عشش الترجمان وعرب المحمدي قبل إزالتها، وقد أزيلوا ليلاً ، والرئيس السادات كان مُصرّاً على إزالة هاتين المنطقتين ، لأنّ منهما بدأت اضطرابات 1977 ، لقد كانت هذه تصورات الناس، لقد ربطوا ما بين الإزالة القسرية والفورية والهدف الأساسي للنظام الحاكم والمتمثل في الاستقرار.

إنّ الإزالة أو إعادة التوطين تنزع هذه الفئات من مجالها الحيوي ولا تراعي ارتباطها المعيشي بمناطق بعينها ، فهي تمس أكل العيش وأماط الارتزاق والتعيش لهذه الفئات ، فعلى سبيل المثال كيف تتصرف امرأة تبيع سمك بسارية في عشش الترجمان عندما يتم إعادة توطينها في عين شمس، المسألة مش مجرد سكن ، ده رزق ، حياتها اليومية .

مثلاً في عشش الترجمان، تقريباً 90% من القاطنين هناك، بناءً على مسح شامل تم في عام 1979، كانت جذورهم العائلية ترجع إلى محافظات الصعيد وخاصة أسيوط وقنا ، في حين أنّ عرب المحمدي كانوا من الدلتا ، من وجه بحري وبالأخص من المنوفية.

وكانت مهّن الخفاء ، التي يتم توصيفها بالمهّن الإجرامية في الترجمان تختلف عن مهّن الخفاء في عرب المحمدي ، المهّن الخفية في عشش الترجمان المخدرات لدرجة أنّ هناك عشرات الغرز ، هؤلاء الناس في معظمهم أو غالبيتهم على الأقل يشتغلون في تجارة المخدرات أو نقل المخدرات ، حتى الأطفال الصغرى.

من ناحية أخرى كان من بينهم عدد كبير من السعاة العاملين في دواوين الحكومة ، فراشين وسعاة ، وهؤلاء كانوا يكون فعلاً، لأنّ مجرد نقلهم لعين شمس أو الزاوية الحمراء، معناه مضاعفة تكاليف الانتقال عدة مرات إلى ما يتراوح ما بين 2-3 جنيهات يومياً ، وهو مبلغ لا يستطيع تحمله في ظل دخله المتواضع.

أما في عرب المحمدي فقد كان الرجال أو عدد كبير منهم، يمتهنون مهنة غريبة جداً ، وهى بيع الدم لمستشفى الدمرداش كل أسبوع أو أسبوعين، أما النسبة الغالبة من النساء فقد كُنَّ يمتهن الخدمة في المساكن المفروشة في مصر الجديدة ، وهى بالطبع الخدمة بالمعنى المعاصر، أي الخدمة والدعارة ، خاصة مع العرب ، وقد حكى لي بعضهن أن أزواجهن يعلمون بما يفعلن ولا يمانعون طالما أن هناك عائداً مادياً.

النقطة الثانية تتعلق بالتكوين الاجتماعي للعشوائيات ، خلال فترة الزلزال وما بعدها ، اضطرت أعداد كبيرة لترك منازلها نتيجة لانهارها أو تصدعها ومن ثم استوطنت المناطق العشوائية، ولذلك انعدم التجانس، أو قلَّ جداً مقارنة بالعشوائيات القديمة.

وبالتالي ازداد الأمر تفاقمًا وتزايدت حدة الصراع بين القوى والفئات الاجتماعية القاطنة بالعشوائيات، وقد فاقم من ذلك بالطبع افتقار هذه المناطق للعديد من الخدمات الأساسية، فماء الشرب على سبيل المثال غير متوافر في العديد من هذه المناطق، ويباع بالجالون والصفحة على عربات "كارو بالحمار" ، وبأسعار مبالغ فيها بواسطة البلطجية ، وهو ما أدى لتسلط قيادات أخرى من الفتوات والبلطجية والخارجين عن القانون وردَّ السجون .

ولكن من ناحية أخرى فإن غالبية السكان هناك، كما رأيتُ في بعض المناطق العشوائية، هم من أسميهم أو أفضل تسميتهم بالمستضعفين في الأرض ، أرامل مطلقات ، أطفال غلبة ، مرضى ، معوقين ، ليس حقيقياً أن غالبية السكان منحرفون ، الغالبية أناس عاديون إنما هناك انحراف شديد يسيطر على هذه الجموع الهائلة من السكان .

إذن ما العمل ، هنالك العديد من التوقعات، أشخاص كثيرون ذكروا الجماعات الإسلامية الإرهابية ، إلا أنني لا أعتقد على الإطلاق في قدرة الجماعات الإسلامية، على فعل أي شيء ، ليس لقوة الدولة لأنها دولة رخوة وليس لضعف الجماعات الإسلامية ، وإنما لأن الدين الشعبي ، دين الحرافيش في مصر يرفض هذا النوع من الدين السعودي ، يرفض هذا الدين الصحراوي .

الدين عندنا فن ، قارئ القرآن الكريم هنا صوته حلو، هنا المولد فن ولعب وشطارة، مراجيح وسرقة ونشل وقوادة وحشيش وخمور وكله، الدين عندنا فن الذهنية المصرية ترفض رفضاً باتاً هؤلاء الآتين من شبه جزيرة الهند وشبه جزيرة العرب، نحن نرفضهم، فالجماعات الإسلامية لن يُمكن لها في الأرض في هذا البلد أبداً وبإطلاق.

بالمقابل تظل ظواهر العنف الاجتماعي التي يمكن أن تُصنّف كجرائم، سوف تظل وتزيد جرائم السرقة والعنف، خاصة أننا نعلم في أدبيات علم الجريمة أنه في العواصم الكبرى والمدن الكبيرة هناك مراكز جذب، مثل مناطق البنوك في المهندسين مركز جذب، وسط البلد مركز جذب، وهناك مراكز تفريخ ومراكز التفريخ غير مراكز الجذب .

خاصة إذا أدركنا أن هنالك تداخلات جغرافية كثيرة بين مناطق عشوائية فقيرة جداً وبين مناطق ثرية يعنى مناطق تفريخ ومناطق جذب، لنأخذ مثلاً بولاق والزمالك، بولاق ووسط البلد بجوارها من الناحية الثانية ، أو السيدة زينب وجاردن سيتى، منطقتان متاخمتان ، أو أرض اللواء والمهندسين.

على غرار ما حدث سالفاً، نتوقع حدوث توسع أو إجرام واسع النطاق، إجرام سطو بالذات سطو مسلح خاصة مع البطالة نظراً لأن هناك بين المتعطلين نسبة هامة من المتعلمين الذين درسوا التكنولوجيا.

إن حادثة المراغة ( سطو مسلح على أحد البنوك ) لم تكن في اعتقادي إحدى عمليات الجماعات الإسلامية ، بل كانت جريمة منظمة ، وهو ما يعني أننا على وشك أن ندخل عصر الجرائم المنظمة.

لقد كان هنالك مؤتمر دولي في علم الجريمة ، في هذا المؤتمر أشارت التقارير المصرية والعربية إلى عدم وجود ما يسمى بالجريمة المنظمة وهذا حقيقي ، لدرجة كبيرة ، لا توجد جرائم منظمة في مصر ، إلا أن هناك احتمالات جدية بظهور جرائم منظمة تكنولوجية، تستخدم فيها تقنيات وهبات جماعية على طراز المصري القديم في القرون الوسطى.

بالطبع هناك درجة من الخوف والرهبة وسط صفوف العوام، فالدولة آنذاك - في القرون الوسطى- لم تكن بقوة الدولة حالياً ، ولكن العوام لا يعرفون سبيلاً ولديهم تحايلات غريبة وظرفية .

ولكنني بالتأكيد لا أدين هؤلاء الناس فقد فاض بهم الكيل ، ولذلك فأنا ميال للسيناريو الثاني وليس الأول، الجماعات الإسلامية لا سبيل لهم أبداً وبإطلاق وإثما الإجرام ويخشى من الجريمة المنظمة، وأعتقد أن هذا سوف يحل قريباً .

ولكن ورغم ذلك فإن هناك ملاحظة موضوعية يجب الانتباه إليها وهي اختفاء هذه الظاهرة أو على الأقل تراجعها كميّاً خلال الفترة من يناير 1952 إلى يناير 1977 ، وهو ما يمكن إرجاعه لوجود مظلة اجتماعية في ظل فترة حكم الزعيم جمال عبد الناصر ، أي ظرف اجتماعي سياسي .

أين ذهبَت ظاهرة العشوائيات في هذه الفترة ، ولماذا لم تسر في اتجاهها ، هل هناك علاقة بين اختلاف نمط التنمية الذي كان سائداً في الستينات والذي استطاع استيعاب مساحات واسعة من الجماهير في مظلة إنتاج وفي مؤسسات الدولة وتغول ظاهرة العشوائيات ، وقد تدفع هذه الجموع إلى الشارع ومن ثم اعتادت سبلاً أخرى للحصول على رزقها .

القضية الأخرى هي قضية هامة جداً ، وتتعلق باحتمالات الصعود المجدد للقوى الإسلامية ، فبعد الضربات التي وجهها النظام الناصري للإخوان المسلمين ، لم يتوقع أحد ظهورها مرة أخرى ، وكان الشارع أيديولوجياً على أرضية عبد الناصر شارع قومي يطرح خطاباً تقديمياً .

وبعد نكسة 1967 بدأت عودة الشارع تدريجياً للأيدولوجية الإسلامية ، وبدأت الجماعات في التكون حتى فوجئنا بهذا النمو المذهل للقوى الإسلامية بتنوعه ، ما بين قوى إصلاحية على شاكلة الإخوان المسلمين، قوى شرعية وتعبوية ، إلى قوى تعتمد العنف في منهجها ، هذا الكمون المؤقت ثم الظهور اللاحق للقوى الإسلامية هل يمكن تكراره خاصة مع استمرار الشروط بل وتدهورها ؟

هنالك أشخاص كثيرون يبحثون عن دور الدولة ويستعيدون في هذا السياق دعوة الرئيس جمال عبد الناصر حينما دعا لاقتحام الصحراء، ومسارعتهم لتلبية دعوته ، وأنذاك كانت منشية ناصر هضبة غير مأهولة بالسكان ، لكننا لا نطرح المسألة بهذا الشكل الفج ، لقد كانت الدولة تساعد فترة وتغض البصر فترة أخرى ، وتقاوم فترة ثالثة ، كانت تبحث عن حل ، سواء حقيقياً أو دعائياً.

إن وطأة الحياة في الأماط المعيشية جميعها بما فيها الحضر ذاته والقاهرة على وجه الخصوص ، تمثل الأسباب الحيوية لتشكيل الأماط العشوائية جميعاً وفي إطارنا المنهجي للبحث اكتشفنا أن العشوائيات ليست مسكناً فقط ، لكن المسكن فيها هو المحور الحيوي للموضوع .

وهناك مقولة هامة لأحد الباحثين في مجال دراسات السكن تقول " نحن نشيد المنازل ثم نقوم هي بنائنا بعد ذلك" وهذه حقيقة، فما بالنا إذا لم يكن مسكناً بالمعنى التقليدي المتعارف عليه ، إن هذه الوضعية تخلق نوعية حياة متردية بسبب السكن وما حوله ، وطريقة السكن ونوعية السكن والدخل ، دخل الأسرة التي تقيم في هذا المكان ... الخ.

لكن الادعاء الذي يذهب إلى أن سكان العشوائيات قوم سلبيون ساكنون يعيشون على الهوامش غير متفاعلين ، وأنهم لا يتفاعلون إلا بالعنف ، فإنه ليس صحيحاً وإنه من الوارد بدرجة كبيرة أن تكون رغبتهم الجارفة في الحصول على حقوقهم الآدمية التي لا يحصلون عليها ، وبالتأكيد احتياجاتهم غير الملباة ، وبالذات في مجال خدمات المرافق والسكن على وجه التحديد، هو ما يجعلهم يتخذون موقفاً من المواقف .

النقطة الهامة في هذا الصدد أن هناك كتلة كبيرة من سكان العشوائيات تعتمد في دخولها أساليب مشروعة ، القطاع غير الرسمي يلعب دوراً بالغ الأهمية في امتصاص هذه الكتلة ولكنه غير منظم ، القطاع غير المنظم مع القطاع غير الرسمي . الاحتمال الثاني أنهم ينخرطون في مسالك غير مشروعة أو (الاقتصاد الأسود) وهو اقتصاد أسود بالفعل ، دعارة ، مخدرات، تهريب، إلى آخره .

## عشوائية الثقافة

بداية الفقير بالمعنى الصوفي هو الفقير إلى الله ، إنه لون من ألوان العبودية لله سبحانه وتعالى ، والإحساس بأن الإنسان مهما أوتي من غنى هو بجانب فضل الله فقير ، فما قاله سبحانه على لسان موسى عليه السلام في الآية الكريمة :

(فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ) القصص 24

إذن : المعنى بالعبودية هو الإنسان المتصوف الذى كرمه الله وفضله وعلمه ، وهذا هو ما يتعلق بمعنى الفقر على المستوى الدينى والثقافى في مصر ، فمصر كانت تعاني في التاريخ القديم والحديث من الفقر والجهل، وهناك ثالث مشهور في الريف المصرى خاصة ما يتعلق بالفقر والجهل والمرض .

الفلاح المصرى على مر العصور على مر العصور قديماً وحديثاً يزرع ولا يجنى ثمرة زرعه ، ويحصدها المالك الأجنبى وهذا الفلاح الذى تعب ويشقى ولا يكاد يجد قوت يومه ، ولذلك فالثقافة الشعبية والمصرية لها مصطلحات خاصة بهذا المعنى أى : أنه عندما لا يجد غالبية الشعب المصرى قوت يومهم .

والأدب المصرى تصوير لبؤس وشقاء ، ففي العصر العثمانى هناك كتاب ( القحوف في شرح قصيدة أبو شادوف ) لعالم من علماء الأزهر هو الشيخ أحمد الشربيني ، هذا الكتاب كله عبارة عن تصوير لبؤس حياة الفلاح المصرى الذى لا يجد العيش والأشعار الموجودة في هذا الكتاب توضح كيف أن الفلاح المصرى يدور كل مصطلح حياته حول الرزق وأكل العيش .

وهذا مفهوم أصيل من المفاهيم التى تتصف بها ثقافة الفقراء ، فالإحساس بالفقر وعدم الأمان ، هو المسيطر على هذا الإنسان ، فعندنا تراث طويل من الشكوى من الظلم من أيام الفلاح المصرى ، الشكوى من ضعف الرزق وكثرة الضرائب وغلاء المعيشة وارتفاع الأسعار .



ولم يوجد في المجتمع المصرى ظواهر للمشاكل الاجتماعية والدينية كما يحدث الآن  
فآخر ما نراه إنسان ينتحر يجد ما يشتري به ملابس المدرسة لابنته هذه الظواهر  
جديدة على المجتمع تدل على معاناة هذا المجتمع قديماً وحديثاً من تسلط أقلية تملك  
كل شيء ، وأغلبية لا تملك أى شيء.

### درجة تأثير المؤثرات التاريخية :

هذا السؤال يُطرح على المجتمعات الراغبة في التقدم ثقافياً ، المؤثرات التاريخية  
ماذا يعرف الإنسان العادى الأمى ونحن نعانى من أمية المثقفين ، وليس من أمية عامة  
الناس ، ففي ظل مشكلة مثل مشكلة الأمية والتخلف العلمى والثقافى ، نحن لا نعرف  
عن بلادنا الشيء الكثير .

فنحن نندهش لأن السائحين من الأجانب الذين يزورون القاهرة يعرفون الآثار  
ويدرسون في المدارس اليابانية التاريخ القديم ويعرفونه جيداً ويعشقونه وكل أمنياتهم  
هى زيارة هذه الآثار التاريخية ، هذا على سبيل المثال .

فإنه لا يمكن أبداً إلا أن أحقق الحد الأدنى من التعليم ثم أطلب بأثر الثقافة  
التاريخية في نفوس الناس الذى يمكن أن يؤثر في قلب وعقل ووجدان الناس في مصر  
هذا هو تاريخ الضعفاء الذين لم يتلقوا شيئاً ما من الثقافة ، فنحن نستطيع أن نزور  
الحسين لنترحم عليه وندعو له بالرحمة ، أما أن نزوره لتلمس البركة فهذا شيء من  
الشرك ، ولكن ماذا عما يقال في بعض المساجد من أن الدعاء عند قبر أو مقام آل  
البيت مستجابة .

هذا كله من خرافات العوام ومعتقداتهم الباطلة ، فالمولد النبوى الشريف له  
احتفالات وذكرى تاريخية وأهمية ، خاصة أن في مصر الإمام البوصيرى صاحب  
البردة المشهورة في مديح النبى على الإطلاق ، فحياة الرسول وسيرته هو الجانب

المتعلق بالتاريخ العربى الإسلامى الذى يمكن أن يكون له أثر في وجدان وحياة الناس لأنهم يعيشونه عاماً بعد عام وعصراً بعد عصر .

أما المراحل التاريخية الأخرى مثلاً ، كالعصر الفاطمى فهم لم ينجحوا أبداً . في تحويل مذهب المصريين من المذهب السنى إلى المذهب الشيعى فقد حكموا مصر مدة تقترب من 200 سنة .

والشيعة لها منطق بعيد إلى حد ما عن روح الإسلام ، فلهم مفهوم خاص بالعبادات وخاصة الشيعة الاثنى عشرية ، وكانت الدولة الفاطمية خلافة قوية امبراطورية ، ومع ذلك لم تفلح لأن الإنسان المصرى إنسان بسيط ومعتدل في تدينه لأن الحضارة المصرية حضارة سماحة وبناء واعتدال وسلام ، والمجتمع الزراعى لا يعرف إلا البناء والزرع والنماء ، وعلى هذا الأساس لم تؤثر العقيدة الفاطمية في الإنسان المصرى طوال هذه المدة، وما أخذناه منهم يتعلق بالشخصية المصرية التى تحب الاحتفالات بالمواسم أو الأعياد الدينية .

فنحن أخذنا المواسم من الفاطميين فعاشوراء والاحتفال بالمولد النبوى الشريف وشهر رمضان ، الزينة بالمساجد والمصابيح والأطعمة .

الجامع الأزهر وهو جامع وجامعة ، وهو أقدم جامعة في العالم هو رمز لعطاء الحضارة العربية الإسلامية في مصر ، وهذا العطاء هو الذى يستمر ، ويعنى الجامع الأزهر بالعلم والدين وهو الذى يستمر في وجدان الناس سواء على المستوى العام والخاص .

وكذلك في مصر في زمن الدولة الأيوبية والمملوكية كانت المكتبة والمكتبات العمومية منتشرة وكتب على أرفع مستوى موجودة على مستوى العالم في ذلك الزمان أى مثل دار الحكمة ودار العلم التى أسسها الحاكم بأمر الله الفاطمى في عهد الدولة الفاطمية ، فكانت أكبر مكتبة في العالم وكذلك الأمر في المكتبات.

وفي العصر المملوكي والأيوبي نذكر أن المغول عندما استولوا على بغداد حرقوا الكتب واستخدموها جسوراً ومعابر للدواب وقضوا على الثقافة العربية وعلى الكتب . إذن هذه العصور التاريخية تؤثر في الإنسان المصري بما يتفق ويتلاءم مع الشخصية المصرية . وجمال حمدان في الموسوعة العظيمة " شخصية مصر " دراسة عبقرية المكان فسر مصر على أنها الحربي فقط ، ولكن بالمعنى الثقافي ، وبهذا مصر مهما كان الغزاة ومهما كان المحتلون على مر العصور ، فالغزاة هم الذين يتأثرون بالمصريين وليس العكس .

وحسب نظرية ابن خلدون ( المغلوب يقلد الغالب ) لكن هنا نابليون بونابرت يأتي إلى مصر يعلن إسلامه ويدعى أنه يحمي الإسلام ، والغزاة يتأثرون بالثقافة المصرية على مر العصور من هنا والثقافة المصرية تنتهي إلى الشخصية المصرية ، ولكنها تتراجع بعوامل التخلف الثقافي والعلمي والحضاري والظروف التي أحاطت بالعالم العربي والإسلامي من الأثر المضاد للغرب وحربه على الإسلام ظاهره وباطنه وتقايس المسلمين في العصر الحديث عن أداء الواجب وبعدهم عن المعنى الحقيقي للإسلام.

فهناك فرق بين الإسلام مثلاً وبين دين المسلمين واقعاً ، فالإسلام ليس مسئولاً عن الجهل والتقايس والتخلف والتراجع الحادث وانحطاط قيمة العلم وتفشي وباء الجهل ، والعادات الجاهلية وتقاليدهم الجهل والغذاء الثقافي المستمر في الكتب والمجلات وكل مجالات الحياة .

ليس الإسلام هو المسئول عن التردى وإنما هي عوامل كثيرة جداً هي التي أدت إلى هذا التخلف والجهل أدت إلى وجود قطاعات عريضة جداً، عشوائية الثقافة مثل عشوائية البناء ، فهناك أسر كاملة عشوائية في ثقافتها الدينية والسلوكية وغيرها .. هناك مجتمعات كاملة .

هذه العشوائية في الثقافة وأيضاً هذا التلاعب بعقول الشباب واستخدامهم في التطرف والإرهاب ، بعض هؤلاء يتلاعبون بالدين ويتاجرون فيه لمصلحتهم الخاصة ويتاجرون به سياسياً ، هذا القطاع العريض من الناس يجرونهم لمصلحتهم الخاصة يستغلون الجهل والتخلف الثقافي والديني فيدفعونهم إلى طرق منافية للإسلام الصحيح والدين الصحيح ، ومن هنا فالإسلام ليس مسئولاً عن هذا التخلف .

ولو تكلمنا عن الشعر الإسلامي فالحروب الصليبية ، وبوش قال إننا الآن حروب صليبية عندنا ديوان كامل شامل في التراث العربي المصري اسمه ( القدسيات ) بمعنى الناتج الأدبي شعراً ونثراً الذي ارتبط بعصور الحروب الصليبية . أى : أنه كان هناك ارتباط وثيق بين الأدب والأحداث التاريخية .

ونجد ظاهرة غريبة جداً وموجودة وعميقة في تراثنا أن كتب التاريخ نجد فيها المراجع الأدبية والشعر ونجد فيها المراجع التاريخية إذن : نحن الآن في الأدب الحديث المعاصر عند حروب صليبية فالتاريخ يعيد نفسه ، وعندما نبحث عن صدى وأثر الحروب الآن في الأدب الحديث لا نجد أن هذا هو الصدى ...

@booka.

### المكوّن الدينى في سلوك الفقراء :

تأثير المكون الدينى في سلوك وحياة وتفكير ووعى الفقراء بالدين في عمق وحياة الإنسان المصرى ، لأن الإنسان المصرى عرف التوحيد قبل مجيء ووجود الأديان والرسل . والحضارة الزراعية في مصر حضارة بناء وعطاء وثمره إنجاز وإسهام للحضارة الإنسانية ولثقافة البشرية ولما جاء الإسلام وجد صدى وقبولاً من المصريين ولسماحة الإسلام انتشر الإسلام بسرعة لأن المصرى متدين بطبعه ، إنه يزرع البذرة في الأرض ثم يترك الباقي على الله أن ينزل المطر وأن ينمو الزرع وتكبر الشجرة يوماً بعد يوم .

فهي حضارة قائمة على الإيمان . إذن الدين تعمق في كيانه ووجدان الإنسان المصرى منذ قديم الأزل إذن الأثر الدينى أثر مستمر والإسلام وجد قبولاً من المصريين لأن الروح المصرية روح تميل إلى الدين والعاطفة الدينية أصلاً .

يُشكّل المكوّن الدينى والثقافة الدينية عنصراً مهماً ، فالناس بفطرتهم يحترمون كل ما هو دينى ويقفون عند حدوده ولا يتجاوزونها إلا نادراً ، هذا التأثير يلعب دوراً كبيراً أيضاً في شكل وعى الجماهير وقيادتها .

ومن هذا يتبين أن المكوّن الدينى يُعد عنصراً فعالاً ومؤثراً في ثقافة البسطاء والدين الشعبى يقترب كثيراً من الدين الرسمى أو دين النصوص الشرعية بل هو في معظمه مستمد منها وقائم عليها ، وبالتالي فإن المؤثرات الدينية والاجتماعية لها تأثير كبير في الثقافة الشعبية.

ومما لا شك فيه أن الإنسان أينما وجد البيئة يتفاعل معها ويتأثر بها وكذا فمن المتوقع أن يكون للبيئة وثقافتها دور كبير في الدين الشعبى والثقافة وينعكس هذا الأثر في الأمثال الشعبية والعلاقات الاجتماعية ، كما ينعكس في المباني والمساجد والعمارة عموماً .

كما يلعب الدين دوراً كبيراً في تشكيل القيم ومعايير السلوك والآداب الاجتماعية وينعكس كل ذلك على الفنون والعادات والتقاليد والملابس .

@booka

## الجوانب الاقتصادية في ثقافة العشوائيات

لا تعبر كلمة الفقر أو العوز عن مستوى واحد من مستويات المعيشة فهي كلمة مطاطية يختلف تعريفها من عصر إلى عصر ومن قطر، إلى قطر فهناك بعض البلاد مَنْ يحقق دخلاً يجعله في مصاف الأغنياء ولكن غيره في بلاد أخرى يحقق نفس الدخل ، ومع ذلك يعتبر هناك فقيراً نظراً لارتفاع مستوى الدخل في تلك البلاد .

وكلمة العوز تعنى الاحتياج ولكن لهذا الاحتياج درجات ، فهناك الفقر المدقع الذى يعنى عدم امتلاك الفقير لى شىء من ضروريات الحياة وهناك العوز الجزئى بمعنى امتلاك الفرد لبعض الضروريات وافتقاره إلى البعض الآخر والمسألة هنا نسبية .

وفي محاولة لوضع حد بين الفقير وغير الفقير رأى علماء الاجتماع أن كل من يقل دخله اليومي عن أربعة دولارات يعتبر فقيراً ، وقد يكون هذا المقياس مناسباً لبعض البلاد ولكنه لا يناسب بلاداً أخرى ، فإذا أخذنا هذا المقياس فإن أغلبية سكان مصر سوف يُعتبرون من الفقراء ، وأكبر مثال على هذا ما وصل إليه حال الطبقة الوسطى في مصر ، فلم يكن من المنتظر أن تصل إلى خط الفقر حيث كان دخل الفرد كافياً لسد احتياجاتهم وتعليم أبنائهم ونيل قدر كاف من الرفاهية .

أما الآن فنجد وكيل الوزارة في مصر يستحق الزكاة من الناحية الشرعية لأن مرتبه أصبح لا يسد احتياجاته الأساسية ، والحقيقة أن هذا هو ما ذهب إليه بعض علماء الاجتماع الأمريكيين ، حيث اعتبروا أن الفقر في العالم الثالث في سياق عام وليس قاصراً على فئة بعينها .

وهناك أيضاً مصطلح آخر مهم تجدر الإشارة إليه وهو " الإفقار " وهو ناتج عن أحوال السوق العالمية ، فعندما تكون هناك دولة معتمدة على محصول واحد بشكل أساسى كالقطن والبن أو الكاكاو ، ثم تنهار أسعار ذلك المحصول فيؤدى



ذلك إلى حالة من الإفقار تحتوى تحت مظلتها معظم شعب تلك الدولة وتتوقف مدة الإفقار على مدة الركود ، وقد تستمر لسنوات وخلالها تظهر ثقافات جديدة وتتغير كثير من العادات ويتنازل الإنسان عن كثير مما كان يعتبره كماليات وربما يتنازل عن بعض الأساسيات .

ويؤثر في ذلك الوضع بدرجة كبيرة تلك السياسات الجديدة المرتبطة بالعملة وتنظيم الاقتصاد العالمى ومحاصرة الدول النامية واقتصادياتها ، كما تؤثر في ذلك الوضع أيضاً سياسات الحكومة الطبقية التى تخدم مصالح طبقة معينة أو فئة محددة ، أو مجموعة من الشركات العملاقة التى تستطيع توجيه سياسة دولة أو عدة دول لمصلحتها تاركة الناس في فقر متزايد ، وبالتالي يزداد الغنى غنى ويزاد الفقير فقراً .

وخير مثال على ذلك سياسة الولايات المتحدة الأمريكية في ظل حكومة بوش حيث تعمل لخدمة مجموعة من الشركات ، بينما تزايد عدد الفقراء في أمريكا حتى قاربوا الأربعين مليوناً وهكذا أصبحت حركات ونشاطات جماعات مناهضة العملة تمثل جانباً مهماً من جوانب ثقافة الفقر ، وهو جانب جديد من جوانب تلك الثقافة لم يتعوده كثير ممن درسوا ثقافة البسطاء والعشوائيات ولم يضعوه في الاعتبار ومراً أكثرهم عليه مرور الكرام .

ولا يعبر عدد الفقراء في دولة ما عن مستواها الاقتصادى ، فمن يسمع عن وجود أربعين مليوناً من الفقراء في أمريكا يتخيل للوهلة الأولى أنها بلد فقير ، وهذا غير صحيح ، كما أن هناك دولاً يصل متوسط دخل الفرد فيها إلى عشرين ألف دولار ولكن عدد الفقراء فيها ربما يزيد على نصف عدد السكان ، وبذلك فإن القياس من خلال متوسط الدخل يتجاهل كثيراً من العناصر الأخرى ، فهو لا يشير إلى الاستغلال الذى تتعرض له الأغلبية بواسطة الأقلية من أصحاب رؤوس الأموال ، ولا يعطى تقديراً حقيقياً لعدد الفقراء .

أما الفقر التقليدي أو الفقر التاريخي فهناك أشكال مختلفة ومتنوعة منه وقد ميّز القرآن الكريم بين درجتين من الفقر يستحق أصحابها الزكاة هما " الفقراء والمساكين " الفقير هو من يملك قوت يومه ، لكنه يفتقر إلى أشياء أخرى كثيرة من الملابس والمأكل والمسكن وغير ذلك ، أما المسكين فهو من لا يمتلك شيئاً مطلقاً ولما ادعى كثير من الناس الفقر واتخذوه حجة للسؤال والتسول .

وضع رسول الله ( ﷺ ) قاعدة يحدد على أساسها من له حق السؤال " إن المسألة لا تحل إلا لذي فقر مدقع ، أو غرم مفجع ، أو دم موجع " فهؤلاء هم الذين يحق لهم أخذ الزكاة ولكن لا يحق لهم السؤال بل عليهم أن يجتهدوا في تحسين أحوالهم قدر استطاعتهم أو يلزموا بيوثهم ويتعففوا عن السؤال حتى يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، لأن المسألة تأتي نكتة في وجه صاحبها يوم القيامة .

ولكن هذه القواعد وتلك المبادئ لم تُحترم وأصبح كثير من الناس يتخرجون عن السؤال ، حتى لقد اتخذ البعض منهم الفقر حرفة يحترفونها ومنهم الغجر الذين اعتادوا التسول ومنهم فقراء السيدة زينب وفقراء الحسين .

ومن صور الفقر التاريخي " التصوف " فمصطلح الفقراء كان مرادفاً لمصطلح " المتصوفة " على مدى حقبة طويلة من الزمن ، وإن كان هناك اختلاف على سبب التسمية هل هم الذين أطلقوه على أنفسهم بصفتهم " الفقراء إلى الله " ، أم ان الناس هم الذين أطلقوه عليهم لأنهم كانوا يلبسون ثياباً بالية ولا يهتمون بمظهرهم أم أن ذلك راجع إلى أن بعضهم اتخذ من التصوف حيلة لسؤال الناس أو الحصول على النذور وادعاء الكرامات .

وخلاصة القول أن الفقراء ليسوا نسيجاً واحداً أو لوناً واحداً أو ثقافة واحدة إنهم ليسوا كتلة بشرية مصمتة ، بل هم مجتمعات نشطة وجماعات فاعلة لها تنظيمات ترعى مصالحهم وإن اختلف شكل تلك التنظيمات من عصر إلى آخر فقديمًا كان هناك في مصر في العصر العثماني طائفة الشحاتين ولهم تنظيمات

طائفية قوية وشيخ للطائفة له مكانته العالية ، ليس في دوائر الفقراء بل أيضاً في دوائر الحكام والأمراء .

وحديثاً هناك تنظيمات عالمية لمناهضة العولمة وفقراء الهند لهم القدرة على تنظيم أنفسهم إلى حد تغيير الحكومات كما فعلوا منذ شهور قليلة عندما أطاحوا بحزب بهارتيا وأتوا بحزب المؤتمر إلى السلطة ولا يختلف الحال عن ذلك في البرازيل أو جنوب أفريقيا . وبالرغم من أن الفقراء في مصر ليس لهم تنظيم محدد أو نشاط سياسى واضح إلا أن المؤكد أن لهم القدرة على أن يمثلوا مصدر خطر على النظام إذا فكر في تجاهلهم ولذلك فهم تحت سمع وبصر الحكومة التى تعلن في كل مناسبة عن حرصها على مصالح الفقراء ومحدودى الدخل وتوجيهات رئيس الدولة للحكومة لا تخلو أبداً من التأكيد على تخفيف معاناة محدودى الدخل والاستمرار في دعم بعض السلع الأساسية التى تمثل ضرورة من ضروريات الحياة .

الفقر له فكر معين وحين أقول الفقر لا أعنى شدة الاحتياج فقط ، ولا أعنى هبوط المستوى المادى لمجتمع إلى مستوى أقل من مثيله في البلاد الأخرى ، ولكن الفقر الحقيقى قد يكون لأناس ميسورى الحال ولكن طريقتهم في التصرف في ثرائهم فقيرة للغاية ما يكون الفقر ، وهذا هو ما يستحق أن نسميه " ثقافة البسطاء " فالفقر ليس وضعاً اقتصادياً فقط .

ولكنه وضع من أوضاع البشر ، وضع عام يتصرف فيه الإنسان بفقر، فينتج أفكاراً تؤدى إلى الفقر ، بمعنى آخر الفقر مرض يصيب العقول والخيال كما يصيب الاقتصاد ، وهناك فقراء يعيشون في ظل أوضاع اقتصادية غاية في الصعوبة ولكن ثرائهم الروحى يتيح لهم أن يستمتعوا بحياتهم ويُمْتَعوا من حولهم .

والفقير الذى من هذا النوع الأخير هو فقر إيجابى يشعل شمعة بدلاً من أن يلعن الظلام ، وله فلسفته الخاصة في الحياة فهو لا يلعن الحكومة التى تهمله ولا يشكو كثيراً ولا يتبرم ، وإنما يبحث عن الحلول بنفسه ويبتكر من النظريات الاقتصادية

الأساسية ما يعجز عنه الخبراء في الاقتصاد وتقوم الجوانب الاقتصادية في ثقافته على عدة مبادئ فحواها الزهد والتوفير والتقليل في الكميات واختصار الحاجيات ويمكن تلخيص هذه المبادئ في النقاط التالية :

### الاكتفاء بالقليل :

ففي ظل العدد المتزايد للأفراد والدخل المتناقص يلجأ البعض إلى الاقتصاد في كل شيء والتقتير على أنفسهم ، وهو مبدأ قد يعرف عندهم بكلمة " بساريا " وهو الاكتفاء من الشيء بأقل قدر ممكن والبساريا نوع من أنواع السمك الصغير جداً ، فبينما يشتري الأغنياء السمك الكبير الملىء باللحم يكتفي الفقراء بشراء السمك الصغير ومصممة العظام ويكفي نصف كيلو لحم لتغذية خمسة أو ستة أفراد .

وفي هذه الحالة يتم توزيع اللحم على أفراد العائلة في شكل أنصبة حتى لا يجور أحدهم على نصيب الآخر وحتى إذا فاجأ العائلة ضيف أو أكثر فإن النصف كيلو سوف يكفي لأن " لقمة هنية تكفي مية " ولا يهم أن ينال الضيف نصيبه من اللحم فما تبقى من الأرز والخبز يكفي لأن "بصلة المحب خروف " .

ولا يقتصر التوفير والتدبير على الطعام ففي الثياب يكفي قميص أو قميصان وكذلك بنطلون وحذاء واحد ويتم ترميمه أو تصليحه كلما ظهرت عليه أعراض الشيخوخة ، ففي مجتمعات الأغنياء لا يوجد " الجزمجى " الذى يصلح الأحذية لأنهم يتخلصون منها بمجرد مرور عدة أشهر عليها حتى لو كانت سليمة أما في مجتمعات الفقراء فمهنه "الجزمجي" مهمة وأساسية .

وفي السكن يتمثل مبدأ القليل في أروع صور في المثل الشعبى "جُحْر الديب يساعى ميت حبيب " فالشقة مساحتها أمتار معدودة وهى عادةً حجرة واحدة وينام على السرير الواحد ثلاثة أو أربعة وربما أكثر وقد يعيش ستة أو ثمانية أفراد

في الشقة الواحدة المكوّنة من حجرة وصالة وحمام مساحتها لا تزيد عن متر مربع ومطبخ لا يكبره بكثير .

ولا يقتصر الأمر على مساحة الشقة بل يمتد ليشمل ما تحويه من خدمات ومرافق ، فالفقراء عادة لا يهتمون بمثل هذه الأمور ، فالسكن فقير في مرافقه وللحس الذي يسكنونه عادة فقير في خدماته عديم التخطيط، فالشوارع ضيقة بهدف توفير أكبر مساحة ممكنة للسكن والمرافق منعقدة فلا توجد مياه ولا كهرباء ، وتحول تجمعاتهم إلى بؤر عشوائية نتيجة لانعدام التخطيط .

ومع الوقت يبدأون في مطالبة الدولة بتوفير الخدمات لهم وتجد الدولة نفسها أمام أمرين أحلاهما مر ، إما أن تمد لهم المرافق الأساسية وتحاول تطوير تلك المناطق التي بُنيت على أساس خاطيء من البداية ، أو أن تزيل تلك العشوائيات وفي هذه الحالة عليها أن توجد لهم سكناً بديلاً لأنهم غير قادرين على إيجاد السكن البديل .

ولا تفعل الدولة ذلك إلا نادراً وفي حالات الضرورة القصوى مثل ما حدث في أوائل عام 2007 في عشوائيات قلعة الكباش بمنطقة السيدة زينب من حريق شب في إحدى العشش الموجودة هناك ، وامتد الحريق إلى العشش المجاورة مدمراً مصير العديد من ساكني تلك العشوائيات وتحاول الدولة جاهدة في توفير شقق سكنية لقاطني تلك العشوائيات .

كما لا تلجأ إلى الحل الأول إلا في شكل مسكنات فتنفق بعض الجنيهاً على أحد المرافق وتهمل بقيتها ، ويضطر سكان العشوائيات إلى الانتظار عشرات السنين لأن " يوم الحكومة بسنة " ويكون هذا التأخير فرصة لتجار الانتخابات ومُدعى " خدمة الناس " فيقوم أحدهم بالتبرع بمبلغ من المال لرصف الطريق أو تجديد مستشفى أو غير ذلك لكي يصل عن طريق ذلك إلى البرلمان .

وبالتالى تحولت مشاكلهم إلى سلعة سياسية يتاجر بها " نواب البنس " ومن على شاكلتهم ويضطر الناس إلى الانتظار حتى يحين موعد الانتخابات التالية لكي يحصلوا على خدمة أخرى ، وهكذا فإن نواباً حل مجلس الشعب هو من الأخبار المهمة التي ينتظرها الفقراء على أحرّ من الجمر .

### الكمية والسعر قبل الجودة :

أما المبدأ الثانى الذى يقوم عليه المكوّن الاقتصادى من ثقافات هؤلاء البسطاء فهو عدم الاهتمام بجودة البضائع التى يشترونها بقدر اهتمامهم بالسعر والكمية فالمنتجات التايوانى تأتى قبل المنتجات اليابانى ، ومصطلح تايوانى عند هؤلاء البسطاء لا يعنى بلد المنشأ هو "تايوان" بل يعنى أن السلعة غير أصلية .

لدرجة أن أحدهم يفضل الزواج من " عروسة تايوانى " عانس أو أرملة أو فقيرة على قد الحال ؛ لأن تكاليف الزواج ستكون أقل ، أو أن يتزوج بعروسة ليست " من عيلة " أو " بنت ناس " لأن مهرها سيكون أقل وقد تقبل العيش مع أمه في شقتها.

وينطبق هذا المبدأ التايوانى على كل مجالات نشاطهم الاقتصادى في السيارات التى يشترون لها قطع غيار تايوانى ولا أعنى السيارات الملاكى ولكن السيارات الأجرة التى يعملون عليها ، وفي الأدوات المنزلية والكهربائية يشترون المنتجات التايوانى والصينى الأقل جودة والأرخص سعراً ، وحتى عندما تقلد تلك الفئة الأغنياء فإنهم يشترون نفس البضائع التى يشتريها الأغنياء ولكن بدرجة أقل " فرز ثانى " وخاصة في مجال السيراميك والأدوات الصحية ولوازم السباكة وأحياناً فرز ثالث .

كما تجد الحقائب والأحذية المصنوعة من الجلد الصناعى لها أسواق رائجة في تلك المجتمعات ، وحتى الحرير الصناعى كان نقلة مهمة تلك الفئة منذ الثلاثينات وإن من يشاهد الأفلام القديمة سوف يكتشف أن ملابس السيدة والخادمة لا تختلف كثيراً ، لدرجة أن المشاهد قد يحتار في تحديد من هى الخادمة

ومن هى السيدة ، وذلك راجع إلى تشابه ملابس الاثنين من حيث الشكل ، ولكن الخادمة مختلفة بالطبع فهذه من الحرير الطبيعى وتلك من الحرير الصناعى .

وقد نجحت المنتجات الصينية في غزو الأسواق العالمية لأنها تتفاوت في جودتها حسب السوق الموجهة إليه ، فالمنتجات في أسواق تلك المجتمعات قليلة الجودة ولكنها رخيصة الثمن يقبل عليها البسطاء بشغف لأنها تحقق لهم الحاجات النفسية التى يحققها الأغنياء من المنتجات اليابانية ولكن بسعر أقل .

وفي مجال المصوغات يُطبّق هذا المبدأ بحذافيره في صورة مصطلح خاص " الفالـصو " وبالرغم من أن معناها بالإنجليزية " المزيف " إلا أن معناها في ثقافة البسطاء لا يعنى المزيف أو التزييف ولا يعتبر جريمة ، وإنما " الفالـصو " نشاط مهني وأسواق تجارية لها زبائنها وروادها .

فالمرأة الفقيرة لا تستطيع أن تلبس حلقة أو خاتماً ذهبياً ناهيك عن الماس أو المِطعمَ بالأحجار الكريمة ولكنها في كل الأحوال يجب أن تلبس خاتماً في إصبعها وحلقة في أذنها ، وعند المرأة الفقيرة فإن الفالـصو يصبح هو البديل وتتوقف قيمة الفالـصو على درجة لمعانه وشبهه بالذهب أو نقاء الزجاج الذى يشبه الماس .

وفي مصر ظهرت أنواع من الصناعات الرديئة لمنتجات لها شهرة عالمية حيث تجد مصانع أنشئت في " بير السلم " لا تعرف الحكومة عنها شيئاً تقوم بتقليد ماركات عالمية من الشامبو أو العطور الفرنسية أو كريم الشعر أو حتى كريم الحلاقة وتجد على الأرصفة زجاجة عطر من ماركات عالمية سعرها لا يتجاوز المائة جنيه وتجدها تباع بجنيهين وبعد أن تشتريها تكتشف أنها مجرد ماء وعليه قليل من رائحة تلك الماركة العالمية .

وحقيقة الأمر أن هناك فرقاً من العمال الذين يقومون بتجميع زجاجات العطور الشامبو الفارغة ، ثم تقوم فرّق أخرى بتنظيفها وتجهيزها للتعبئة بحيث تبدو جديدة ، وتقوم فرق ثالثة بتجهيز الخليط العجيب من العطر أو الشامبو أو غير ذلك من المنتجات .

### ثقافة المستعمل :

وإذا لم يستطع البائس أن يقتصد ولم يرض بـ " التايوانى " على أن يقتنى " اليابانى " فإنه ليس أمامه سوى طريق واحد هو المستعمل ، ولا يقتصر شراء البضائع المستعملة على قطع غيار السيارات أو الأدوات الكهربائية فقط ، بل يمتد بشكل واسع النطاق ليشمل كل ما يمكن أن نتخيله ، وأحياناً بعض ما لا نستطيع أن نتخيله .

فأبناء تلك الفئة لا يجدون حرجاً من الذهاب إلى مدارسهم وحتى إلى الجامعة وهم يرتدون ملابس مستعملة ويتنعلون أحذية مستعملة ، ويحملون حقائب مستعملة في داخلها كتب قديمة ، وتسود ثقافة المستعمل أو كما يحلو أن يسموه بطريقة أكثر شيابة " سكند هاند " .

وفي إطار ثقافة المستعمل تعيش عائلات بأكملها أو مجتمعات برمتها ، تجارة المستعمل ، تصليح وتجهيز المستعمل ، شراء ولبس المستعمل ، فينشط تجار الروبايكيّا في شراء مخلفات المجتمعات الغنية ، وتوجد فرّق من العمال التى تقوم بتصليحها وترميمها وتجهيزها للبيع ، فبنطلون به قطع صغير يستنكف الغنى أن يلبسه أو حتى مجرد الذهاب إلى الترتزى لإصلاحه ، وقميص سقط أزراره يجده ابن الغنى قد أصبح من المخلفات التى لا يجدى معها الإصلاح ، وخاصة إذا كان من الصعب إيجاد نفس ألوان الأزرار المقطوعة ، ولكن ابن الفقير يقبل بذلك ويقوم هؤلاء بوضع الزر الناقص ، لا يهم أن يكون من نفس اللون أو النوع ويقبل الفقراء على الشراء .



وتنتشر في مجتمعات الفقراء أسواق البضائع المستعملة وفي القاهرة وحدها توجد عشرات الأسواق وكان معظمها يتواجد في الأحياء الفقيرة والعشوائية ولكنها بدأت تمتد إلى كثير من الأحياء التي كانت تعتبر غنية في وقت سابق ويرجع ذلك إلى أن كثيراً من الأفراد في الطبقة الوسطى في مصر قد أصبحوا في عداد الفقراء .

ومن أهم تلك الأسواق التي تباع البضائع المستعملة أو القليلة الجودة " تايوانى " سوق إمبابة وسوق الجمعة وسوق الأحد بشبرا الخيمة وسوق المطرية وسوق التونسى الذى يُعقد كل يوم تقريباً ووكالة البلح .

وفي ظل سيادة ثقافة المستعمل أصبح ممكناً أن يتحول تاجر الخردة إلى مليونير وأصبح صعباً أن يحقق المتخصصون في إدارة الأعمال وتنفيذ المشروعات نجاحاً مشابهاً ، وإن نموذج عبد الغفور البرعى ليس حالة شاذة أو محض خيال بل هو مثال شائع في أسواق الفقراء وقد يؤدي إلى إعادة هيكلة الطبقات الاجتماعية.

فأصبحنا نرى أغنياء اليوم هم من أبناء فقراء الأمس وعندما أصبحوا أغنياء أخذوا معهم ثقافتهم ولم يأخذوا من ثقافة وتراث واتيكيث الأغنياء إلا بعض القشور ، وكانت النتيجة أن تأثر الغناء والموسيقى والمسرح والسينما بهذا التحول فالأشخاص القادرون على دفع الأموال أصبح ذوقهم وثقافتهم لا تتذوق الفن الأوبرالى ولا الموسيقى الكلاسيكية وحل محلها أغاني " العنب " ، " من خمسة لخمسـة نص " ، " الدنيا غدارة أو خربانة " وغيرها من الأغاني والموسيقى الهابطة حيث تجد شباب الطبقة الغنية يقودون سيارات فارهة ورغم ذلك يسمعون تلك الأغاني في سياراتهم ، من هنا أصبح الفارق بين ثقافة الأغنياء وثقافة البسطاء ضئيلاً جداً ، بل إن ثقافة الأغنياء اليوم نابعة من ثقافة الفقراء بدرجة أكبر من ثقافة أغنياء الأمس .

ونتيجة للحركة الاشتراكية التي قادها الزعيم جمال عبد الناصر تم القضاء على الطبقة الغنية القديمة التي كانت تحتفظ بقدر كبير من ثقافة الأغنياء بمفهومها الراقى ، وقد حاول بعض ضباط الجيش ومن أطلق عليهم مراكز القوى شغل ذلك المكان الخالى ، ويصنعون من أنفسهم طبقة غنية مسيطرة ولم ينجحوا في ذلك .

ولعل من أهم أسباب فشلهم هي أن " الطبقة " ثقافة قبل كل شيء والثقافة لا تشاع بين يوم وليلة وإنما هي أسلوب حياة وطريقة تفكير ووعى وللعلم فالطبقة تحتاج إلى أكثر من مائة عام لكي تتكون وهنا نلاحظ أن هذه الطبقة الغنية بثقافتها هي ثقافة الفقر والعوز لأنهم جاءوا من الطبقة الدنيا أو من الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى وأحضروا معهم ثقافتهم .

والدليل على ذلك أننا إذا نظرنا للكتاب نجد أن حالته تدهورت وتوزيع الصحف يتناقص والأغاني في هبوط مستمر والمسرحيات تدنى مستواها وكل ذلك راجع إلى أن هذه الطبقة هي التي تشتري وهي التي تسمع الأغاني وتتحكم في شبك التذاكر في السينما والمسرح وتفرض ثقافتها على الفن ، لدرجة أننا نسمع كثيراً من الفنانين يحتجون على رداءة أعمالهم بعبارة " الجمهور عايز كده " وبالتالي فهم في الظاهر طبقة عليا.

ولكن عندما ننظر في ثقافتهم نجدها ثقافة متدنية ونلاحظ الخروج عن القانون عندهم متاح وهذا لم يكن أبداً موجوداً في الطبقة العليا القديمة وبالعكس فهي كانت حريصة على سمعتها وسلوكها ومظهرها ، ونجد أيضاً الطبقة العليا موجودة عندنا الآن يتسمون بغرور المال الذي جاء نتيجة للثراء السريع الذي جعلهم يتحدون القوانين . . تلك هي ثقافة الفقر بعينها ، ثقافة فقر الفكر وفقر المال .

@booka.

## الجانب السلبي في ثقافة الفقراء

نتيجة لتدني مستوى الدخل وطموح الكثير منهم إلى الغنى فإن البعض منهم يتحرك ليأخذ موقفاً سلبياً في المجتمع ، ويأخذ ذلك صوراً عديدة منها :

### 1. التهرب من الضرائب :

هناك أنشطة اقتصادية ضخمة يمارسها البسطاء ولكنهم لا يدفعون عليها ضرائب للدولة ، خاصة أولئك الذين يعملون في مجال المستعمل والخردة وغيرها وتكون النتيجة بالنسبة لهؤلاء تحقيق الثراء السريع فلا يعرف تاجر الخردة مفهوم " الفاتورة الضريبية " ويبدو الأمر وكأن هناك علاقة تواطؤ ثلاثية الأطراف بين البائع والمشتري والحكومة ، فالبائع يعرف أن المشتري لن يستطيع أن يدفع " ضريبة المبيعات " وهو يريد أن يبيع بضاعته ، فينشأ اتفاق غير معلن بينهما على أن يشتري بسعر ما قبل الضريبة على ألا يطلب فاتورة ضريبية ، فإن هناك 10% من قيمة الفاتورة سوف يضاف إلى السعر والحكومة تعلم ذلك ، ولكنها تعلم أن تطبيق ذلك على هؤلاء سوف يؤدي إلى حدوث قلق ومشاكل قد لا تستطيع مواجهتها.

### 2. استحلال مال الأغنياء :

لا يوجد بين الفقراء نموذج أدهم الشرقاوى الذى يسرق الأغنياء ليعطى الفقراء وإن وُجد فهو أمر نادر ، ولكن بصفة عامة وبعيداً عن النظريات المفسرة للجريمة فإن جريمة السرقة هي نشاط يمارسه الفقراء ضد الأغنياء ، فالقاعدة هي أن من لا يملك ، يسرق من يملك ولا شك أن وجود أكثر من أربع مائة منطقة عشوائية في مصر يسكنها أكثر من سبعة ملايين مواطن تسود بينهم ثقافة الفقر والتي تتكون من مجموعة سمات معينة ، أهمها تصاعد أعمال العنف التي قد تصل للإرهاب وخصوصاً أن البيانات تشير إلى أن أغلب حوادث السرقة وأكبر نسبة من المسجلين جنائياً يقيمون في تلك المناطق التي تحيط بالأحياء الغنية إحاطة السوار بالمعصم.

### 3. خصائص النشاط الاقتصادي لسكان العشوائيات :

تشير إحدى الدراسات أن عدد المناطق العشوائية في مصر قد بلغ نحو ( 961 ) منطقة ، منها (81) منطقة يجب إزالتها فوراً ونحو (880) منطقة يقترح تطويرها ويستلزم ذلك اعتمادات مالية كبيرة تعد بالمليارات ويسكن كل هذه المناطق نحو 11 مليون نسمة ، ولقد تم تطوير حتى مايو 1996 نحو (90) منطقة عشوائية .

وفي القاهرة الكبرى وحدها يوجد ستة عشر تجمعاً عشوائياً أغلبها بمناطق نزلة السمان ، الهرم ، العمرانية ، بولاق الدكرور ، ميت عقبة ، المنيرة ، شبرا الخيمة المطرية ، منشية ناصر ، تلal زينهم ، البساتين ، وطرة ، حلوان ، البدرشين ، منيل شيحة والكنيسة . وإذا كان مأوى الإنسان في العصر الحجري هو كهوف الجبال ثم تطور وبنى عششاً من أفرع الشجر وبقايا النباتات ، ثم تطور بناؤها بالقش والطين فإن كل تلك الأنواع من المساكن لا تزال موجودة في مصر بشكل أو بآخر ناهيك عن سكان القبور ، وكذلك سكان " مساكن الإيواء " التي تتمثل في وحدات الثلاثة الأمتار مربعة ، ووحدات التسعة الأمتار مربعة في شكل بلوكات لها دورات مياة مشتركة ، ولا ننسى في هذا المجال إسكان المناور وتحت السلام وإسكان المخابئ القديمة المتروكة منذ أيام الحرب وفي مناطق الزبالين ومقابل القمامة .

وحيث إن طابع حياة سكان العشوائيات يحمل النمط الريفي فقد يمارس من لا يجد عملاً منهم تربية المواشى أو بعض الدجاج ، يسوقونها أمام العشش التي يسكنونها ، أو القيام بشراء وتسويق الأنواع الدنيا من الخضر الورقية كالفجل والجرجير والبقوليات وبعض الفاكهة ويبيعونها أمام المساكن أو يحملونها كباعة متجولين .

كما تقوم بعض النساء ببيع وتداول الألبان ومنتجاتها خاصة الجبن القريش المكشوف للآتربة والذباب ويقوم البعض باستجلاب أو تصنيع الأنواع الدنيا من الحلوى كالعسلية والبسكويت والمتاجرة فيها ، أو صناعة الطعمية أو الفول المدمس وبيعه أو بيع الخبز على صواني من الجريد موضوعة على الأرض .

هذا ويفتح البعض من سكان العشش محلات تجارية أو دكاكين شبيهة بما في الريف لبيع عدد قليل من مواد البقالة التى تناسب حياة سكان العشش كالشاي والسكر والزيت وبعض مساحيق الغسيل والكيروسين وملبات الإضاءة التى تُضاء به وأكواب وأوانى البلاستيك وصفائح المياه والجرادل والجرانك وقد يقيم البعض محال حرفية وورشاً بسيطة للتجارة أو إصلاح وابوارت الجاز " الكيروسين " .

كما أن فرز القمامة يعتبر نشاطاً أساسياً لنسبة كبيرة من سكان العشش حيث يعملون لحساب الزبالين في استخراج الزجاجات الفارغة والصفائح والكرتون مقابل حصولهم على مبالغ من الزبالين أو يقومون ببيعها لتجار الخردة أو التجار الذين يتاجرون في المستعمل السابق الإشارة إليهم .

وبامتداد نمو التجمع السكاني العشوائى تأتى إليه الصناعات الضوضائية التى تطردها أو تحظرها قرارات الأحياء الراقية داخل المدينة كالحداثة وسمكرة السيارات وإصلاحها ، وصناعة البمب الذى يلعب به الأطفال في الأعياد ، وتستوعب هذه الأعمال المختلفة نسبة 5% من القوى العاملة في العشوائيات ، أما بقية السكان فعاطلون وبطالتهم لها أشكال غير ، سوية وهى نماذج متعددة من الانحراف والبلطجة ويمارسها الشباب منهم بصفة خاصة لعرض الفتوة وإشهارها ، فيلعبون القمار الرخيص ويشربون الخمر الرديئة التى قد تكون مجرد كحول أحمر ، كما يمارس العديد منهم تدخين المخدرات وقد تطور الأمر إلى المتاجرة فيها .

## 4. العنف السياسى :

تشير الإحصاءات في مصر إلى تزايد معدلات الفقر ، إذ وصلت نسبة السكان الذين يعيشون في فقر مدقع " مرتفع " في القاهرة إلى 20.9% ناهيك أن نسبة 8.36% من إجمالي الحضر يعيشون تحت خط الفقر ، وإذا كان التحول الاقتصادى في مصر قد ساعد على خفض التضخم وتثبيت سعر الصرف وهبوط العجز في الموازنة بشكل أو بآخر إلا أن غالبية سكان مصر من الفقراء لم يستفيدوا من ذلك شيئاً .

وبالرغم من أن هذه التحولات قد أصبحت اتجاهات عاماً منذ سقوط الاتحاد السوفيتى والمعسكر الاشتراكى ، إلا أن هذا لا يعنى تقديم الطبقات الفقيرة قرباناً لهذا الاتجاه المهيمن على مذهب السوق العالمية ، لا سيما وأن هذا أمر يهدد تلك التحولات نفسها في الصميم ، فهو يهدد بحدوث القلاقل الاجتماعية التى قد تعصف بها تم تحقيقه من إنجازات في مجال اقتصاد السوق .

ولا شك أن أحد العوامل التى سوف تساعد على التعجيل بتلك القلاقل هو أنه في الوقت الذى تسير الدولة فيه بخطوات سريعة نحو اقتصاد السوق فإن دورها يتراجع في المجال الاجتماعى ، وفي نفس الوقت لا تفسح الدولة المجال للجمعيات الأهلية لتحل محلها ، وإذا كانت الدولة قد اتخذت بعض الإجراءات في مجال الضمان الاجتماعى في محاولة لتخفيف آثار هذا التحول فإن ذلك لا يكفي خاصة وأن عدد الفقراء في تزايد مستمر .

وإذا كان خبراء الإصلاح الاقتصادى يحتجّون بأن الإصلاحات الاقتصادية قد تضر بالفقراء على المدى القريب ، ولكنها سوف تكون "الدواء المر " الذى يجب أن يتجرعه الفقراء للارتفاع بمستوى معيشتهم على المدى الطويل ، حيث إن انتعاش الطبقات الغنية يؤثر إيجاباً بمرور الوقت على الطبقات الفقيرة في صورة خلق وظائف وانتعاش عام في المجتمع ولكن حتى الآن فإن هذا التطور الإيجابى الذى تحدثوا عنه منذ نحو عقد من الزمان لا يوجد أى دليل على احتمال حدوثه

وأن كل البيانات والأرقام تشير إلى اتساع الفوارق بين الطبقات واضطراب عملية الإفقار. فعندما ننظر إلى السياسات الاجتماعية يفترض أن ترتبط السياسة الاجتماعية عموماً بالفئات الفقيرة طالما تهدف السياسة إلى حماية فئات المجتمع الأقل دخلاً ومواجهة متطلباتهم وإشباع حاجاتهم الأساسية ، وقد حصرت بعض الدراسات هذه الفئات الفقيرة في المتعطلين وذوى المعاش والضمان الاجتماعى والعاملين بالقطاع العام ( درجة ثلاثة فأقل ) والعمالة الزراعية الأجيّة والعاملين في القطاع الخاص غير الرسمى .

ومنذ قيام ثورة يوليو 1952 والدولة تحاول مدّ مظلة التأمين بكل أنواعه إلى كل فرد في الدولة ، وكانت أعباء الدولة قبل عام 1957 قاصرة على المعاشات الخاصة إلا أنه مع بداية السبعينيات وزيادة حدة الفقر في مصر صدر قرار 66 لسنة 1971 بتأسيس بنك ناصر الاجتماعى ليساهم في تشكيل المجتمع القائم على أسس الكفاية والعدالة والتعاقد ، إذ يقدم هذا البنك مساعدة مالية لغير القادرين بقروض دون فائدة للمشروعات الإنتاجية التى يقيمها الفرد ولهؤلاء الذين يواجهون الصعاب الاقتصادية والاجتماعية.

إن عمليات الانفتاح والتحول للسوق في الاقتصاد المصرى في العقدين الماضيين أدت إلى دعم عمليات المضاربة في الإسكان والتربح لصالح أقلية من ملاك الأراضى وأصحاب المباني الجديدة ودعم الفوارق الطبقيّة القائمة .

هذه التطورات تهدد بالخطر ما اعتادت عليه القاهرة بصفة خاصة ومدن مصر بصفة عامة من تجاوز الأغنياء الفقراء في السكنى ، وإن كنا لم نقرب بعد من ظاهرة الأحياء المسورة المحروسة بالمدافع الرشاشة للأغنياء كما حدث في أمريكا الجنوبية وجنوب أفريقيا ، درءاً لحسد وثورة الفقراء ، وبالرغم من أن القاهرة كانت حتى الآن بمنأى عما حدث في لوس أنجلوس وريودجانيرو حيث هناك أماكن لا يستطيع دخولها الفقراء وأماكن لا يتجرأ على دخولها إلا



الفقراء وابتعد عنها الأغنياء خوفاً ورعباً إلا أنها تسير حثيثاً في هذا الاتجاه ويمكن أن نشير إلى أحياء الزمالك والمهندسين وبعض المناطق في مصر الجديدة ومدينة نصر كمناطق أوشكت على أن تكون أحياء مغلقة للأغنياء .

وقد ارتبط العنف بالعشوائيات منذ أكثر من خمسة عشر عاماً ، حيث تم القبض على عدد من المتهمين في قضايا عنف مختلفة في منطقتي بولاق الدكرور وعين شمس عام 1977 وشهدت عشوائيات بولاق الدكرور والقناطر الخيرية والمنوفية أحداث القبض على المتهمين في بعض التنظيمات عام 1986 وشهدت عشوائيات الشراية وحدات المعادى أحداث القبض على الهاربين من سجن طرة المحكوم عليهم بأحكام مختلفة .

وكانت أحداث عنف منطقة عين شمس في عام 1988 استمراراً لهذا المسلسل ، وكذلك أحداث عنف عشوائيات إمبابة سنة 1992 ، ثم توالى أحداث العنف والسطو على محلات الذهب والقتل وحوادث التفجير هنا وهناك وحوادث تفجير عبوات ناسفة في معظمها كان لها علاقة بشكل مباشر بالعشوائيات ، مما جعلها جميعاً في نظر المجتمع ومسئولي الأمن بؤراً إجرامية وإرهابية .

الحقيقة أن هذه المؤشرات تشير إلى تحول العشوائيات إلى قنابل موقوتة جاهزة للانفجار ، بل أنها كثيراً ما انفجرت وأضرت بنفسها وغيرها فلا شك أن عدم إشباع حاجات المواطنين الأساسية في هذه المناطق التي تسود فيها ( ثقافة العشوائيات ) يترتب عليها عدم استقرار سياسى.

والدليل على ذلك حدوث أعمال عنف من الفقراء ، فعبر أربع سنوات ( 1991 - 1994 ) شهدت مصر (75) احتجاجاً عُمالياً كما تحول في كثير من الأحيان تلك العشوائيات إلى معامل تفريخ للجريمة ، وهذا هو أخشى ماتخشاه الطبقة الغنية حيث تتحول أحياء الأغنياء التي بنيت العشوائيات على هامشها إلى هدف سهل في البؤر العشوائية .

وتمثل حلقة من جهود الفقراء ليتكيفوا مع مشاعر اليأس والإحباط حينما يعجزون عن تحقيق نجاح على أى مستوى في مجتمعهم الأكبر ، وأود هنا أن أقول " إن محو الفقر أسهل بكثير من محو ثقافة الفقر "" والجدير بالذكر أن الفقراء يعملون دائماً على تخليد ثقافة الفقر حتى لو كان ذلك يحدث بشكل تلقائي فأطفال المناطق الفقيرة في سن السادسة أو السابعة يتبنون التوجيهات الثقافية الرئيسية في منطقتهم ، ويستوعبون نفسياً القيم الثقافية المحلية ، وبذلك يتم تبنى ثقافة الفقر وتوارثها من جيل إلى آخر .

@booka.

## اللغة في الثقافة العشوائية

الحقيقة أن العامية المصرية أقرب اللغات للغة العربية الفصحى رغم ما فيها من الاشتقاقات والمنحوتات اللفظية المتوارثة من العصور التي تواتر فيها على مصر المماليك والأتراك والفرس وباقي الجنسيات التي تركت بصمات أو تركت بعض الألفاظ المتداولة ، لكن من حيث الصياغة العامية تعتبر اللهجة المصرية أقرب اللهجات العربية إلى اللغة العربية الفصحى واللهجة المصرية أيضاً لها مثل مستويات اللغة وهي .

■ العامية البسيطة ولها مستوى أيضاً أعلى من ذلك .

■ عامية المثقفين أو الصفوة .

■ عامية الأميين وعامية لبعض المستنيرين .

■ وفي النهاية توجد عامية المثقفين التي هي أقرب إلى اللغة العربية الفصحى تماماً إلى جانب اللهجة المصرية فيها الكثير من الفصحى من حيث الصياغة ومعظم فنون الكتابة العربية .

من ناحية أخرى نجد أن فنون البلاغة العربية موجودة في اللهجة المصرية ، حيث نجد التشبيهات والكناية وكل أشكال البديع نجدها أيضاً ، إلى جانب أن اللهجة المصرية بها كل أشكال الصياغة العربية وتكاد تكون لها تصريفات حتى أن كل لفظ عامي له تصريفات بنفس أسلوب تصريف الأفعال وتصريف العبارات.

بما أننا نعيش في عصر السمع والرؤية التليفزيونية والإذاعية فأصبح حتى البسطاء والعامية الأميين يتفاعلون مع اللغة الرسمية التي يتلقونها ويسمعونها من خلال برامج حوارية أو من خلال نشرات الأخبار أو برامج لها طابع ثقافي ، حيث ظهرت مفردات العامة من الناس أو البسطاء جداً من الأميين بعض التعبيرات وإن كان من الممكن أن يرددوها وهم ليسوا مدركين تماماً لمعناها ومغزاها ، خاصة إذا كانت مصطلحات لها طابع سياسى أو اقتصادى أو مغلق بالنسبة لهم .

لكن من الممكن أن تتوافر في لغاتهم أو مفرداتهم الشعبية يتلقونها في شكل من أشكال العلاقة بينهم مع اللغة الرسمية ويستقبلونها في شكل جيد ، بينما الأكثر استنارة مما نجد أن لغة الخطاب الرسمية لها قبول لديهم فيحاولون قدر الإمكان أن يرددوا التعبيرات وينشروا هذه المصطلحات بشكل سريع مهما كانت لغتهم الرسمية .

أما عن تأثير الثقافة الحديثة القادمة من مركز الرأسمالية العالمية بما تتضمنه من قيم ثقافية استهلاكية على لغة المصريين فنجد أن ثقافة العوامة أثرت بشكل كبير على قيم المجتمع وعلى مفردات اللغة وعلى تطلعاته وعلى النمط الاستهلاكي ليس فقط في لغة الإعلام ، ولكن أيضاً في لغة الإعلان حتى أصبح هناك جذب أى عملية أخذ وعطاء ما بين الاثنين بشكل فاعل .

وأيضاً أثرت هذه الهجمة بشكل كبير على نمط الحياة والسلوك والتطلع البشرى وعلى مفردات اللغة أيضاً كان لها تأثيرها ، بدليل أن أصبح العامة من الناس أحياناً يرددون " إفيهات " وردت في مسرحيات أو يرددون عبارة الشعار الموجودة في الإعلان ويكتب مدلوله ، بحيث من الممكن أن يتكرر رغم أن الإعلانات واحدة مفرداتها وشعاراتها التي يسهل حفظها ، حيث إن كل سلعة لها إعلان له مَثْنَه ( معلومات ) وله شعار أو أغنية ويتم تكرارها لربط المستهلك بالسلعة ، ولا شك أن هذه العبارات مأخوذة من اللهجة المصرية ومع ذلك مُصَاغَة بشكل فيه ظَرْف إلى حد ما ، فالشعب المصرى يعيد تكرارها ويكتسب مدلولات جديدة أيضاً ويستشهد بها في صور كثيرة تكاد تكون هى الأصل حتى أصبحنا حالياً لم نعد نستشهد بالأمثال الشعبية والمأثورات الشعبية ، بل أصبحنا نستشهد بما أتى في الإعلانات .

إن الهجمة الإعلانية الموجودة حالياً ليس مصدرها كتاب فقط (كان القلق سابقاً من الغزو الفكرى الذى يأتينا في صورة كتاب ) هذه ليست غزواً فكرياً لكنها اجتياح أو اكتساح من الفضائيات والانترنت وكل الأشكال من السموات المفتوحة.

وهذا الكلام إلى حد كبير أثر حتى وصل إلى حد أنه أحدث تحولاً في سلوك الفرد داخل المجتمع المصرى بشكل فارق بمعنى حدوث تحول جذري ، تحولات في الشخصية والبعض يرى أنها تحولات قشرية لم تصل النخاع أى لم تصل إلى لب الشخصية المصرية لكن في الحقيقة أنها تحولات جذرية طالت الشخصية المصرية بكل مظاهرها الملبس والمأكل حتى وصلت النخاع .

وحتى المزاج المصرى أصبح مختلفاً فمزاجهم في الملبس اختلف وهذا الانفتاح الإعلامى أثر كثيراً فالجلابية الفلاحى المصرية التقليدية وكذلك الملاية اللف شبه انقرضت حتى حُلَّ محلها الإيشارب الفلسطينى والعباية السعودى والجلابية السعودى وأيضاً ظهور الجينز وكل مخترعات الموضة .

وعلى مستوى المأكَل أيضاً تجد المزاج الشعبى العادى الذى يأكل خضاراً وأرزاً ولحماً ، فكنا نجد الأطفال يلعبون ويقولون " فتة ولحمة ورز " لم نعد نأكل فتة ولحمة ورز ، بل أصبحنا نأكل همبرجر وكنتاكى والتيك أواى وغير ذلك .

حتى الإعلانات ساهمت بشكل كبير في تعرفنا بأنواع كثيرة من الطعام الجديد حتى أنه في إحدى المرات ظهر إعلان عن أكلة اسمها (كريب يا مرسى كريب ) ما الكريب لا تعرف ؟ فالإعلان بدأ يفرض نماذج من أنواع المأكَل التى لم نكن نعرفها - فالإعلان نجح في أن يدخلها بشكل كبير جيد والإعلام والإعلان تضافر في تحقيق تجذير الهجمة الإعلامية بشكل خطير .

أيضاً سلوكيات أفراد الشعب المصرى الذى كان ودوداً طيباً مستامحاً وغيرها من السمات الخيّرة ، والذى كان يُغلبُ العاطفة على المادة أصبح إلى حد كبير تحكمه المادة لعلها سمة عصره ، لكنها اشتدت بشكل كبير أحدث انقلاباً في الشخصية المصرية .

الإنسان المصرى الذى كان صبوراً وراضياً بأقل القليل حتى أن المثل الشعبى يقول : " إذا حضر العيش يبقى المش يشبرقه " فالمصريون راضون بحالهم وصابرون على كل ما يصيبهم أياً كان ، أما حالياً مستوى اللجاجة والاستعجال في تحقيق الطموح حتى لو أدى إلى أن الإنسان يرتكب جريمة أو يفعل سلوكاً مشيناً أو يأخذ رشوة وأصبح يفعل أى شئ خارج .

هناك رأى يقول : إن صفات مثل المروءة والشهامة أخذت في الاضمحلال بين أفراد الشعب المصرى ، ورأى يقول : إن هذه الصفات الكامنة في وجدان المصرى ويستدل على ذلك بأنه عندما حدث زلزال أكتوبر في مصر بدأت تظهر صفات كالنخوة والمروءة والنجدة والشهامة .

ولكن قد يكون هذا مؤشر أخطيراً فالشعب المصرى الذى كان بطبعه متعاوناً أصبح لا تتحرك داخله هذه الصفات الكامنة إلا عندما تحدث كارثة وبذلك نستطيع أن نقول : إن هذا الغزو العولمى الوافد أثرٌ بشكل كبير في سلوكيات وقناعات ومزاج الشعب المصرى .

كانت الأمثال الشعبية تُظهر مدى إتقان المصرى لصنعتة حيث كان يُوصف بأنه فنان ومعلم ومنتقن المهنة محب لوطنه مُنتمٍ إلى ترابه مرتبط بأرضه ، لا يفضل أن يتركها أو يهاجر إلى أرض سواها بالرغم من ضيق العيش كان المصرى عندما ينتقل من بيت إلى بيت داخل الحى يحس الغربة والحنين إلى بيته الأول ويظل مدة حتى يتكيف ويتأقلم مع البيت الجديد .

والأمثال الشعبية ( عزل يوم خراب سنة ) ( من طلع من داره اتقل مقدار ) تؤكد مدى ارتباط المصرى بوطنه ، أما الآن فالمصرى يسافر ويهاجر ويقيم في وطن جديد بسهولة صحيح يتبقى داخله جزء من الشجن أو الرغبة في العودة ولكن يتأقلم بسهولة على الوضع الجديد والوطن الجديد .

لا يمكن القول بأن هناك أمثالا خاصة بالبسطاء وأخرى خاصة بالأغنياء ، لكن الفقر كظاهرة في حد ذاتها رصدها المثل الشعبي مثل (الفقير ريحته وحشة ) ( لو كان الاسم بينشرى كان الفلاح سمى ابنه...) ( طول ما أنا على الحصيرة لا شايف طويلة ولا قصيرة ) يعنى طالما قاعد على الحصيرة يعنى في مستوى متدن لن يرى الناس الى فوق .

وأيضاً يقال في المثل ( إذا دخل الفقر من الباب هرب الحب من الشباك ) في إشارة إلى أن الحب لا يكفي للزواج وبناء أسرة ، ( طلب الغنى شفقة طلب الفقير زيهر جاته داهية ما قل تدبيره ) ( إن شفت الفقير بيجرى اعرف أنه بيقضى حاجة للغنى) يعنى دائماً الفقير تابع للغنى (دلع الفقار بيوقع المرارة ) حتى الدلع غير مقبول من الفقير ، ( الغنى مات جروا الخبر والفقر مات مفيش خبر ) (الفقير لا يتهدى ولا يتبادى ولا تقوم له في الشرع شهادة ) ( إن عاشوا كلوا الديدان وإن ماتوا مالقوا كفان ) ومجمل هذه الأمثال الشعبية يوضح مدى الظلم الاجتماعى الواقع على البسطاء .

بالرغم من أن المصرى يعتبر المال شيئاً أساسياً ولكنه لا يعطيه الأهمية المطلقة فدايماً المصرى كان يقول أن الأصالة أهم لأن الشعب المصرى شعب أصيل وعريق ويتجسد ذلك في المثل الشعبى السائد ( خذ الأصيلة ولو على حصيرة ) ( ما تبكيش على اللى ضاع ماله أبكى على وقف حاله ) وهذا يعنى أن العمل أهم من المال ( الصيت ولا الغنى ) .

فالمصرى يُقدّر قيمة السمعة الطيبة والأصل الطيب مرت على الشعب المصرى منذ تاريخه القديم وحتى العصر الحديث ولكن هذه المحن لم تؤثر على أصالة المصرى ربما تكون أثرت على نظرتة للحياة والعالم من حوله .

وفي بحث لسيد عويس أشار أنه اكتشف وهو ما زال طالباً في معهد الخدمة الاجتماعية عام 1938 أسرة تعيش بأكملها في المقابر معنى ذلك أن سُكنى القبور يتم منذ فترة طويلة ، ولأن سكان القبور الآن لا يعيشون في فقر مدقع كما



يتصور البعض فنجد الأسرة تمتلك جميع الأجهزة الكهربائية مثل التلفزيون والغسالة والثلاجة ... إلخ .

وسكان القبور أيضاً استغلوا المساحات الخالية لإصلاح السيارات وأنشطة أخرى كثيرة ، فلم يعد سكان القبور مؤشراً على أن هؤلاء الناس هم أدنى الطبقات مثل ساكنى القبور قديماً ، كما أن هؤلاء الناس يتكسبون من أى شىء حتى من التسول بعكس الطبقة المتوسطة التى يستنكف أبناؤها من التسول ويأبون التكسب إلا من مصادر لائقة .

@booka

## المجتمعات العشوائية والطبيعة الاجتماعية

### السمات العامة وأساليب التكيف :

تعتبر أساليب التكيف مع الفقر أحد المكونات الرئيسية لثقافة البسطاء لما لها من تأثير على الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، ولما لها من أساليب إبداعية أنتجها الفقراء من واقع ظروفهم للتوافق مع أوضاعهم الاقتصادية ، وما يشعرون به من حاجة دائمة وتطلعات مستمرة ورغبة في التمثل بالطبقات العليا في نفس الوقت مع ضيق ذات اليد وحالة الفقر النسبي التي يعيشونها .

ومن أساليب التكيف اللاشعورية والتي يلجأ إليها قاطنو المجتمعات العشوائية الزيادة السكانية والتي تزداد بصورة رهيبة لا تتناسب مع مواردهم المتاحة ، وهذه الزيادة تسير بسرعة مذهلة لدرجة يمكن معها القول أن البسطاء يستثمرون أطفالهم كما يستثمر الأغنياء أموالهم وأملاكهم ، فيلجأ الفقراء إلى زيادة النسل ليس نتيجة الجهل بمصالحهم ولكن نتيجة العجز والبؤس .

فبعض شرائح العائلات الريفية تعتمد في بقاؤها على ما يكتسبه الأطفال من دخل يُضاف للعائلة وهي وسيلة مهمة للتكيف والتي اصطلح على تسميتها بـ ( عمالة الأطفال ) ومن ناحية أخرى ونظراً لعدم توافر الأغذية والخدمات الصحية يدرك الآباء أن أطفالهم سيموتون غالباً فيلجأون إلى الإنجاب الكثير من الأطفال ليضمنوا تعويضهم الفاقد من الأطفال والذي يشكل لديهم قوة أساسية.

وليس من الصعب علينا الكشف عن تأثير الفقر وأثره في محاولة تكيف البسطاء مع ظروفهم السكنية والبيئية ، فهم يتصرفون إزاء ظروفهم السكنية بطريقة لا تخلو من إبداع ورشد ومواءمة ، فنلاحظ أنهم غالباً ما يحرصون على تطوير مساكنهم وتدعيمها بتشييد جدران خارجية وحجرات إضافية وسقوف أكثر صلابة وربما طوابق أعلى وذلك داخل المناطق العشوائية ، ومن أبرز سمات ثقافة

العشوائيات تلك الأساليب التي تتبعها الأسر المصرية الفقيرة في التكيف لمواجهة الفقر ، ومن ذلك :

تتعايش هذه الفئة بطريقة أو بأخرى مع غير الفقراء في المجتمع مستكينة ومستسلمة لقدرها ، فالفقر يخلق الحرمان والمهانة ثم عدم الرضا والقلق والغضب والذي قد يصل إلى حد التهيج ثم الثورة ، فإذا ما وئدت هذه الثورة بشكل أو بآخر كان الخوف والاستسلام والاستكانة واليأس والإحباط وكلها سمات تقف حائلاً ضد ممارسة الإنسان لحياته بحرية .

الفقر لا يولد إلا الفقر عادة ، وأسوأ ما في هذا الفقر هو مصادرته للطموح أى : أن الفقير بعكس ما يظن الكثيرون تتحدد فرصه في النجاح لفقره.

صحيح أن هناك بعض الحالات والأمثلة التي تشير إلى عكس ذلك ولكنها تمثل نسبة محدودة جداً من المواطنين بعكس الوضع عند الفئات متوسطة الدخل والغنية . وفي تلك المجتمعات يتم تبادل الخدمات باستمرار بين أفراد الأسر وبعضها فتركز المرأة إلى جارتها لحماية أطفالها دون إعلان مسبق وتستعير منها بعض قطع الأثاث البسيطة في حالة وجود ضيوف وكذلك بعض الأدوات المنزلية كالأطباق والأكواب . كما قد تقترض الفتيات الحلى من بعضهن البعض وكذلك الملابس ، كما يشيع تبادل الأطعمة تحت اسم هدايا خاصة في المناسبات مثل شهر رمضان والعيدين ويوم عاشوراء ويوم مولد النبی وغيرها من الأعياد .

وقد يتفق الجيران على تنظيم جمعية ( للحصول على مبلغ من المال بطريقة دورية ) وقد يصل الأمر إلى تبادل الخدمات الصغيرة : قدر من الملح - فص ثوم - كوب سكر - كوب زيت - بعض الشاي ( هذا التبادل المستمر ركن مهم من أركان الثقافة الحياتية للعشوائيات في مجتمعاتهم يستمدون منها جزءاً كبيراً من أمنهم الغذائي ) .

وقد أبدع المصريون في تنويع ( الفول ) حتى قدموا منه نماذج توضح مدى إبداع المصرى في تكيفه مع الفقر ، فجعلوا منه أصنافاً وأطباقاً متعددة حتى يستسيغوا هضمه ولا يملوا طعمه .

ويلاحظ أن الطعمية تمتاز برخص ثمنها الذى يتوافق مع ظروفهم الاقتصادية كما تمتاز باحتوائها على نسبة عالية من البروتينات النباتية وذلك لعدم استطاعة البسطاء تناول البروتينات الحيوانية مثل اللحوم والألبان والأسماك لغلو ثمنها ، كما يلاحظ أن ثقافة الفول والطعمية والكشرى وحمص الشام قد انتشرت بين الطبقات الغنية مما يوضح مدى تغلغل ثقافة الفقر داخل مجتمعات مصر .

المهم في الأمر أن سعر تلك الوجبة الغذائية رخيص ولذلك لا يجد العامة غضاظة في الوقوف على قارعة الطريق لتناول طبق من الكشرى لدى أحد الباعة الجائلين الذى يغسل الأطباق في جردل متسخ ولا يراعى أبسط قواعد النظافة والصحة وكذلك يتهافت العامة على عربة الفول والطعمية والبائع يكتب شعاراً على العربة " إن خلص الفول أنا مش مسئول " كذلك بائع الكبدية يكتب على الفاترينة " كلوا من طبيبات ما رزقناكم " .

إذ لا يهم بالنسبة للبسطاء نظافة الطعام وجودته، ولا يهم أى الأمراض قد يسببها تناول أطعمة الشارع ولا يهم مظهر البائع ومدى نظافته ولكن المهم هو سعر الوجبة وتكلفتها ويرجع ذلك إلى العامل الاقتصادي من ناحية وإلى غياب الوعي من ناحية أخرى. ونتج عن هذا وجود مجموعة من الأمراض عُرفت لدى الأطباء بأنها (أمراض الفقر ) ومنها مجموعة الأمراض المرتبطة بتناول أطعمة الشوارع مثل القولون وقرحة المعدة وتلوث الأمعاء والالتهاب الكبدى وبعض الأمراض الفيروسية وكذلك مجموعة الأمراض المرتبطة بسوء التغذية وذلك نتيجة لتناول الفقراء

نوعية معينة من الأطعمة لا يغيرونها إلا نادراً وفي نفس الوقت عدم تناولهم أطعمة غنية بالبروتينات الحيوانية كاللحوم والأسماك ومنتجات الألبان والفاكهة .

وتؤدي الكثافة السكانية في الأحياء العشوائية والتزاحم داخل الحجرة الواحدة إلى التقارب بين المساكن والأكواخ والحجرات وضيق مساحتها ، ويؤدي هذا بالتالي إلى زيادة في التفاعل والاحتكاك ويساهم في هذا ضيق المساكن الذي يدفع بالأسر إلى استخدام مناطق مشتركة ومتداخلة أمام وبجوار مساكنهم فتقوى الخلافات حول تلك المناطق المشتركة التي تم احتلالها .

كل هذا يخلق جواً خانقاً يفضي إلى القلق والتوتر وزيادة معدلات المعارك وخاصة بين الأطفال والنساء ، وتزداد هذه المشكلة عندما تكون هناك خدمات مركزية يؤمها الجميع مثل وجود جمعية استهلاكية عامة أو طلمبة مياه أو دورات مياه أو مغاسل عمومية ، ويصاحب هذا الفقر دائماً مشكلات أخرى مثل الجهل والمرض وانخفاض مستوى المعيشة مما يجعل من ممارسة الفرد لحياته بحرية وإن كان يخلق تحدياً يساهم في إبداع الفقراء لنمط مختلف من التكيف مع الموارد .

ومن النماذج المهمة في دراسة ثقافة العشوائيات ثقافة الحارة أي البيئة الحضرية للفقير وهو مناخ له العديد من المفاهيم والمصطلحات التي تكوّنت بفعل التعايش مع البيئة ، ومن أمثلة هذه المفاهيم مفهوم " الجدعنة " ، " الفتونة " ، " المرجلة والشهامة " ، " الدفاع عن بنات الحتة " ، " الشرف والتباهى بالقوة العضلية " .

وقد تفرز هذه الثقافة نموذجاً لشخصية يغلب عليها الادعاء في تصرفاتها ادعاء الحكمة وعلو الهمة وهذه التصرفات السيكوباتية تُعرف في العرف الثقافي والاجتماعي بأنها ( الشخصية المدردحة ) فالشخص المدردح هو الذي يستطيع التصرف بفهلوة وذكاء ، والفهلوى في التراث الشعبي هو الذي يستطيع أن يخاطب الجن الأحمر ويعايش في نفس الوقت ملائكة السماء والأرض دون أن يجد في ذلك غصاصة أو دون أن يتطلب منه جهداً.

ويتميز الشخص المدرّج الذي يشعر بالرضا المزيف بقدرته على التكيف السريع مع الوسط أو البيئة التي يتواجد بها اعتماداً على مرونته وفطنته وقابليته للهضم والتمثل الجديد ، فتراه عليمًا بكل شيئاً هكذا كما يدعى ومسائراً للأمور بسطحية لكي يغطي الموقف ولا يرتبط ارتباطاً حقيقياً بما يقوله أو بما يلتزم به من تصرفات كان قد أخذ على نفسه عهداً بتنفيذها ، وهذه الشخصية التي يميل إليها الآن معظم الشباب لا تتحمل المسؤولية ومن هنا واعتماداً على الثقة أو قدرات حقيقية ، فإننا نجدها تعامل الأمور باستهتار وتتهكم على الغير أحياناً وتدعى القدرة البارعة على حل الأمور فوراً ، وكذلك القدرة على التخلص من المأزق كما تخرج الشعرة من العجين والغريب في أمر هذه الشخصية المدرّجة أنها تنال إعجاب الكثيرين بل وهناك من يضرب المثل بها عندما تظهر المشكلة التي تحتاج إلى حل رزين وفكر واسع بحيث لا يقوى عليها هذا المدرّج ولكنهم من فرط إعجابهم بسرعته وحيلته المزيفة يتذكرون تلك المواقف وهم في حيرة إذا صعب الحصول عليه أو في لهفة التشوق إلى سماع رأيه السديد عندما يأتي ومعه الحلول الواهية المعتمدة على المسكنات الموضوعية في شكل التزييف والوصولية .

وإذا انتقلنا إلى جانب آخر من المكونات الثقافية وأنماط التفكير لدى تلك الشريحة من المجتمع سنجد أنها غالباً ما تقيس الوضع الاجتماعي للفرد بالبعد الاقتصادي وكمية الدخل ونوع العمل الذي يعمل به ولا نقصد بطبيعة الحال نوع العمل من الناحية الفكرية أو المعنوية ولكن المقصود طبيعة العمل من ربح ودخل وفير ( ولذلك نلاحظ أن كثيراً من الشباب الذين تخرجوا من الجامعات قد تركوا مهنتهم لقلة الدخل المادية وبدءوا يزاولون أنشطة ومهنًا أخرى تدر عليهم مبالغ كبيرة مثل العمل في الفنادق أو التجارة أو السفر إلى الخارج للعمل في أي عمل ليس له علاقة بمؤهلاتهم .

وبطبيعة الحال فإن هذا الاتجاه الذى بدأ ينتشر عند البعض قد عمل عمله في تصدع القيم وانهيار المثل ، وأصبح كل فرد من هؤلاء محبى المال عليه أن يصرع ويكافح ويجمع من الأموال حتى ولو كان على حساب كرامته وصحته لأنه يخاف الفقر ويخاف أن تقلّ الأموال مهما زادت وتضيع في زحمة هذه الهواجس والانفعالات كل بؤادر القناعة .

ويلاحظ أنه من سمات تلك الثقافة قيام معارك كلامية أو بدنية بين سكان تلك البيئة ، وقد اتضح لهؤلاء أن تدخل الشرطة في مثل هذه المواقف لا يؤدي إلى تجريح أو ضرب الأطراف المختلفة دون التعرف على أساس المشكلة أو صاحب الحق أى أن نقطة الشرطة في رأى هؤلاء تحاول دائماً التخلص من المشاكل دون طريق تأديب كل من يقترب منهم .

كما أن بعض سكان المناطق العشوائية يكونون من أرباب السوابق والهاربين ويجرهم أى تعامل مع الشرطة إلى تفتيح قضايا سابقة هم في غنى عنها . وعلى هذا فإن الثقافة تفرض على أفراد مجتمع العشوائيات موقفاً خاصاً من الحياة هو موقف الحذر والقلق والتشكيك وعدم الأمان من الماضى والحاضر والمستقبل . ومن هنا فإن المجتمع العشوائى بظروفه الصعبة يجد قيم المداينة مكان الشجاعة ، والمواربة مكان الصراحة ، والتحيز مكان العدالة ، والتشكك مكان الثقة والفهلوة مكان الجدية ، وقد انعكس هذا على الأسرة الفقيرة ، ليس من حيث الإمكانيات فحسب ولكن من حيث الاتجاهات نحو الحياة .

فالأسرة الفقيرة تضع في شرايين أطفالها اليأس والاستسلام وقيم القسوة وانتهاز الفرص والخطف والأخذ بحق وغير حق ، وتمجد قيم المداينة والمواربة والحذر والتشكك ، وهذا كله هو تكييف الأسرة مع ما حولها كما تتكيف مع الظروف الصعبة .

وتختلط الحدود في تلك المناطق في موضوع الملكية ، فالحدود بين الملكية العامة والخاصة غير واضحة فإذا تمكنوا من تحويل ملكية عامة إلى ملكية خاصة بطريقة أو بأخرى كان ذلك الأفضل أى أن الفقير يشعر بالراحة إذا تمكن من ركوب السيارة العامة دون دفع الأجرة ، أو توصيل نور الكهرباء خلسة من أقرب عامود عمومي ، أو التحدث في التليفون العام بالعملة ثم استرجاع تلك العملة التى وضعها لاستعمال التليفون ، أو ضم جزء من الشارع أمام مسكنه ليصبح حرماً خاصاً به ليلعب فيه الأطفال الصغار وتمارس فيه الأمهات نشاطهن بالنهار ويجلس فيه الرجال على دكة أو مصطبة في المساء ، كذلك إقامة " الأفراح والمياتم " باستخدام سماعات كبيرة في تلك الشوارع لعدة أيام ، على اعتبار أن من حق هؤلاء الفقراء استخدام الشارع حتى في إقامة مثل تلك السراقات .

يعتبر الاحتكاك بالعالم الخارجى في سن مبكرة لأرباب الأسر هو الأسلوب السائد للتكيف بسبب النشأة الفقيرة ، فالأسرة الفقيرة تدفع بأطفالها صغاراً إلى العمل المجاور ، وتعد نتيجة ذلك سلاحاً ذا حدين فهى تحرم الأطفال من طفولتهم ، ولكنها في نفس الوقت تدفع بهم إلى النضج المبكر من خلال الاعتماد على النفس منذ الصغر .

يؤدى انخفاض الدخل إلى صعوبة الإنفاق وخاصة الإنفاق على ضرورات الحياة المتمثل في الطعام الذى يمثل أعلى نسبة إنفاق فيغلب على الطعام المواد النشوية وتناول اللحوم مرة في الأسبوع واختصار عدد من الوجبات اليومية ، وينعكس ذلك على صحة الفقير وتؤكد مقولة إن من لم يتحكم في خبزه لا يستطيع أن يتحكم في فكره .

أما عن الأوضاع السكنية فعادة ما يكون السكن مستأجراً إيجاراً شهرياً ، وحتى من تتحسن ظروفه الاقتصادية ويستطيع التنقل من مسكن إلى مسكن آخر لا يفعل لكى يدخر مسكنه القديم لأبنائه .



أما نوع السكن وعدد حجراته فيتدرج من وحدة سكنية مستقلة إلى السكن المشترك إلى نظام لغرفة الواحدة بمرافق مشتركة ، ولعل أسوأ أنواع السكن هو ذو المرافق المشتركة التي تجعل الإنسان دائم الشعور بالحرَج مفتقد الإنسانية في كثير من المواقف ويؤدي به الأمر إلى قضاء احتياجاته داخل السكن ( الغرفة الواحدة ) مما ينعكس عليه صحياً ونفسياً .

@booka

## العشوائيات والعنف الاجتماعي

تعكس المفاهيم والتصورات السوسيولوجية السائدة قصوراً هاماً فيما يتعلق بتعاطيها مع ظاهرة العنف الاجتماعي، إذ غالباً ما تختزلها إلى إحدى تداعيات السيولة المجتمعية نتيجة للمرحلة الانتقالية التي تشهدها التشكيلة الاجتماعية المصرية ، أو إلى تحليل منظومة القيم السائدة نتيجة لتأثير الثقافات الفرعية الوافدة ( الثقافة النفطية ) ، فضلاً عن ضعف وتحلل مؤسسات التربية الأولية ( الأسرة-المدرسة-المؤسسة الدينية وغيرها). وعلى الرغم من الصحة الأولية لهذه التفسيرات إلا أنها تظل جزئية وثنائية في التحليل الأخير نتيجة لرؤيتها الخطية للتقدم الاجتماعي.

فالتطور وفقاً لها يؤدي في النهاية لخلق بنية اجتماعية متكاملة ومنسجمة والتشوهات التي تنجم خلال التطور لا تزيد عن كونها أحداثاً عارضة أو انحرافات لا تلبث أن تستقيم مع الإطار العام مع استقرار البني المجتمعية والأنساق المجتمعية. والحقيقة أن التطور بالمعنيين الاقتصادي والاجتماعي عملية عضوية لها جانبها السلبي الذي يشكل الوجه الآخر للعملة وليس مجرد عرض زائل أو مؤقت فالتنمية تنتج الهوامش، فلا يمكن على سبيل المثال عزل العشوائيات أو مدن الصفيح التي تنتشر كالنطاق على خاصرة المدن الكبرى وأحياناً في أعماقها عن التغيرات التي يشهدها المجتمع المصري منذ ثلاثينيات القرن الماضي ، والتي أدت لنزوح أعداد هائلة من العاطلين وصغار المنتجين من الريف باتجاه المدن والعواصم الإقليمية بحثاً عن العمل. وبقدر ما كانت تلك الجموع ناتجاً عضوياً لرسملة الريف بقدر ما كانت جيشاً احتياطياً للعمل ، مخزوناً يتم السحب منه لتغطية الطلب على اليد العاملة الرخيصة في القطاعات الاقتصادية الناشئة. ومع استمرار النمو الاقتصادي لفترات طويلة نسبياً يمكن أن يبدأ هؤلاء النازحون في التكيف والاندماج

في المنظومة المجتمعية ، إلا أن تعثر أو ركود الاقتصاد يعكس وجهة التطور، حيث تتزايد معدلات البطالة وتتركس الفردية كمعادل لتفكك البني الأسرية وغيرها ويزداد انخراط هذه الفئات في قطاعات الاقتصاد الأسود (المخدرات-الدعارة-التهريب وغيرها). من ناحية أخرى يتفاقم الشعور باللامبالاة أو العداء تجاه الدولة وأجهزتها المختلفة، فنظراً للواقع المتمثل في ضالة -وأحياناً عدم- استفادة هذه المناطق من الإنفاق العام للدولة ، سواء على مستوى البنية الأساسية، الخدمات ، توطین الاستثمارات وغيرها، فضلاً عن تعرضها في كثير من الأحيان للغارات الأمنية ، بل وأحياناً الترحيل الجماعي مع أية محاولة من قبل الدولة لضبط النمو العمراني يتزايد إحساس القاطنين بالعشوائيات بافتقار الأمان وهو ما يؤدي بالتالي لتزايد الشعور بالعداء والاستهانة من قبل هذه الفئات تجاه كل من الدولة والمجتمع.

إن ذلك لا يعني بالطبع مسئولية المهمشين عن حوادث العنف المجتمعي، فهذه الظاهرة أضحت تضم غالبية، إن لم يكن كافة فئات وشرائح المجتمع المصري على اختلاف انتماءاتهم الطبقية والمهنية، ولأسباب تجد جزءاً هاماً من تفسيراتها في الطابع المشوّ والمركب للتطور الاقتصادي/الاجتماعي المصري ، إلا أن هذه الفئات مسئولة إلى حد بعيد عن نمط نوعي من العنف الاجتماعي وهو ما يمكن أن نطلق عليه العنف الوظيفي أو الارتزاقى ، بمعنى أن يصبح العنف وسيلة للعنف أو التعيش، وهو العنف المصطلح على تسميته اجتماعياً بالبلطجة -وفقاً للإحصاءات الأولية المتوافرة شهد عام 1998 على سبيل المثال 5000 حادث بلطجة، كانت المناطق العشوائية مسئولة عن 70% منها على الأقل.

بالطبع لا تحصر النسبة المتمثلة في التهميش والعنف الجميع دون استثناء ولكنها تخلق الشروط الأولية لتفاقم الاستعداد الكامن للعنف مقارنة بآماكن وفئات أخرى ، كما أنها تزيد من حدته وانفلاته . وإذا كان ذلك منطقياً بدرجة ما نظراً للطابع الوظيفي أو الارتزاقى لهذا العنف ، فإن العامل الآخر الذي يكرس

هذه السمات إنما يتمثل في الطابع الانتقامي لهذه الممارسات، فهذا النمط من العنف المجتمعي يعكس قدرا من الشعور بالغبن والقهر ، شعور الهامش تجاه المدينة التي تخلقه وتنبذه في آن، ولذلك تسيطر عليه الرغبة في الانتقام والثأر الأمر الذي يجعل العديد من ممارسات البلطجة أشبه ما تكون بالعقاب الجماعي بغض النظر عن دوافعها وأسبابها الأولية .

بالتوازي مع البلطجة تعد المناطق العشوائية بمثابة البيئة الحاضنة للعنف السياسي، فالعشوائيات بطوروفها الاجتماعية والاقتصادية وطبيعتها الايكولوجية وتركيبها الديموغرافي السكاني تساعد على انتشار السلوك السياسي العنيف وهو الأمر الذي يجد تفسيره في تقاطع معاملات التهميش من حرمان اقتصادي وسلبية سياسية (تدني نسب المشاركة السياسية) في ظل الغياب الأمني للدولة مما يوفر الشروط الأولية لنمو وتوطن أيديولوجيات العنف، فتحليل الأصول الاجتماعية لأعضاء التنظيمات الجهادية -علي سبيل المثال- توضح بجلاء مسئولية هذه المناطق كبيئة حاضنة وداعمة للعنف السياسي. ففي خلال النصف الأول من التسعينيات كان حوالي 14% من أعضاء هذه الجماعات ينتمون لحي الساحل، 9.1% لحي الشراية، 9.1% حي الوايلي، 7.3% حي المطرية، 31% إمبابة، 24.2% حي بولاق، فيما كانت الجذور العائلية للغالبية العظمى منهم ترجع لقرى العياط وناهيا وصفط اللبن وكرداسة ، عزبة شكر ، عزبة دولار ، الخانكة ، أبو زعبل وكفر شكر وهي قرى تعاني بالأساس من التغيرات الاقتصادية وإشكاليات الانتقال إلى النمط الحضري.

هذا النمط تكرر خلال النصف الثاني من التسعينيات حيث تركزت عمليات العنف الديني في مدن وقرى الصعيد وبالتحديد في ملوي وديروط وسمالوط وأبو قرقاص وغيرها، مما يشير بجلاء إلى مسئولية التنمية المشوّهة عن إفراز العنف حيث تؤدي إشكاليات الانتقال والتناقضات التي تنجم عن ارتفاع مستويات التعليم

مع تضاؤل فرص الحراك الاجتماعي لتزايد الشعور بالاغتراب والصدام مع قيم الحضر أو المدينة.

في إطار السياق السابق تتضح العلاقة القوية بين كل من العشوائيات، والعنف بمستوييه الاجتماعي والسياسي وهي العلاقة المرشحة للتفاقم في ظل العديد من الاعتبارات والتي يمكن رصد أهمها في التالي:

@booka

## العشوائيات والمسئولية الاجتماعية للدولة

### عشوائيات القاهرة والمحافظات :

بالنسبة للقاهرة كشفت التقارير أن هناك 11 منطقة عشوائية تقع على مساحة 2670 فداناً ويقيم فيها حوالي 2 مليون نسمة، وهي عين شمس والمطرية والمرج، والوايلي والزواية الحمراء - ومنشأة ناصر - وعزبة الهجانة - والبساتين - والفسطاط - ودار السلام - وطرة والمعصرة وعرب غنيم وراشد، وكفر العلو، والحكر والتبين، وقسمت هذه المناطق تبعاً لأولويات التطوير والإزالة وهي 68 منطقة عشوائية قابلة للتطوير و13 منطقة تم رفع كفاءتها بينما توجد 20 منطقة أخرى غير قابلة للإصلاح على الإطلاق .

وذكرت التقارير أن عدد العشوائيات على مستوى الجمهورية وصل إلى 1105 مناطق، يسكنها 16 مليون نسمة .. منها على سبيل المثال 68 منطقة في القاهرة مساحتها 1,33 كيلو متر مربع ، و54 منطقة في الجيزة مساحتها 1.44 كيلو متر مربع ، و48 في القليوبية 20 كيلو مترا ، و54 منطقة في الإسكندرية مساحتها 34 كيلو متراً ، و28 منطقة في الفيوم مساحتها 5,4 كيلو متر و52 منطقة في بني سويف بمساحة 3.9 كيلو ، و29 في المنيا على مساحة 4.7 كيلو متر، و84 منطقة في أسيوط على مساحة 6 كيلو مترات ، و57 في قنا على مساحة 7.5 كيلو متر .

## العشوائيات تكسب:

وأكدت التقارير أن نسبة الإسكان العشوائي في بعض المحافظات تتراوح ما بين 18% إلى 30% من نسبة الوحدات السكنية، وفي الوقت الذي يوجد فيه في القاهرة 75،1 مليون شقة فإن إجمالي الوحدات السكنية الهامشية وإسكان الحجرات المستقلة يصل إلى 260 ألف شقة أي حوالي 30%، وفي الإسكندرية يصل عدد الوحدات السكنية إلى 860 ألف شقة في حين أن وحدات الإسكان الهامشي تمثل 222 ألفا، وفي بورسعيد 110 آلاف شقة ووحدات الإسكان العشوائي تصل إلى 17 ألفا، وفي السويس 100 ألف مقابل 21 ألف إسكان هامشي.

أما في بقية المحافظات فيصل عدد الوحدات السكنية إلى 9.2 مليون وحدة مقابل 789 ألف وحدة إسكان عشوائي أي بنسبة 28%.

## مسئولية الحكومة :

وكشفت الدراسات أن نمو العشوائيات يرجع أساسا إلى عدم تنفيذ القوانين الخاصة بالمباني وكذلك حماية الأراضي المملوكة للدولة .. في مقابل تقاعس الأجهزة الحكومية المعنية عن التنفيذ، وكذلك ضعف الاهتمام بالتنمية الإقليمية والتي تهدف إلى إعادة توزيع سكان البلاد والخروج من الوادي الضيق إلى مجتمعات جديدة تستقطب تيارات الهجرة وكذلك عدم توفير الأراضي المرفقة والصالحة للبناء .. والأهم من ذلك خلل سوق الإسكان وانخفاض المعروض من الوحدات السكنية وعدم ملائمة العرض مع نوعية الطلب حيث انخفضت نسبة الإسكان الاقتصادي من إجمالي الوحدات السكنية. لقد كان للانسحاب المتسارع للدولة من المجالين الاقتصادي والاجتماعي ، ففي إطار التحولات الهيكلية للدولة المصرية -برنامج الإصلاح الاقتصادي والتكيف الهيكلي- وما يترتب عليها من نفي القاعدة الاقتصادية للدولة -خصخصة قطاع الأعمال العام- وتقليص الإنفاق الاجتماعي -الدعم السلعي، الإنفاق العام على التعليم والصحة وغيرهما- ستتزايد حدة الأزمة الاجتماعية نتيجة لتضاؤل

فرص التوظيف وتزايد الأعباء المعيشية، وهو ما يعني بصيغة أخرى انسداد آفاق الحراك الاجتماعي وتضاعف عوائق الاستيعاب والدمج المجتمعيين، وهو ما سيفاقم بدوره من احتمالات الصدام ما بين الهامش والمركز، العشوائيات والمدينة خاصة إذا ما راعينا تراجع الوجود الأمني للدولة في هذه المناطق بعد اختلال التوازن فيما بينها وبين الجماعات الجهادية وهو ما يعني تضاؤل قدرات الضبط الأمني للدولة على مواجهة احتمالات العنف في المناطق العشوائية.

كذلك نجد تغيرات البنية الاجتماعية للعشوائيات، فعلى العكس من البدايات التاريخية للهوامش لم تعد تلك المناطق مجرد معسكرات لتجميع النازحين من الأرياف (العاطلين-الفقراء-صغار الحرفيين) في سياق رسملة علاقات الإنتاج في الريف المصري، فبدءاً من منتصف السبعينيات وكنتيجة للانفجار الحضري وتزايد المضاربات العقارية، بدأت تلك المناطق تشهد نمطاً مغايراً من النزوح، حيث أخذت نسب متزايدة من سكان الحضر في الاستقرار في المناطق العشوائية مما أوجد خليطاً غير متجانس اجتماعياً وثقافياً ساهم بشكل مباشر في تجسيد الصراع بين قيم المدينة والريف فضلاً عن دورها في خلق الشروط الأولية لتفجر العنف الديني وهي النمط الذي يظل قائماً بغض النظر عن التوازن الحالي بين الدولة والتنظيمات الجهادية.

اتجاه الدولة لضبط النمو العمراني، وهو ما يتضمن إعادة تخطيط المراكز الحضرية، خاصة العاصمة والمدن الكبرى بما يترتب عليه من ترحيل وإعادة توطين جماعية لأعداد هائلة من قاطني المناطق العشوائية مما يولد المزيد من مبررات ومحكات الصدام بين الطرفين، خاصة إذا ما راعينا ضخامة الاستثمارات التي تتطلبها عمليات التوطين الجماعية والعلاقة العضوية بين أنماط الارتزاق وأماكن السكن بالنسبة لشرائح عريضة من المهمشين، إضافة إلى الخبرات السابقة والتي توضح ارتكان الدولة للآليات الأمنية والإدارية لإخلاء المناطق العشوائية.



## ابتلاع المساحة الخضراء :

ونتيجة لذلك لم يتوقف الأمر عند حد المدن والمناطق الحضرية ، بل امتدت العشوائيات لتهدد الأراضي الزراعية .. بلغت نسبة العشوائيات 80% من إجمالي العشوائيات في مصر بصفة عامة و20% منها على الأراضي الصحراوية، وساعد على ذلك وجود احتياج حقيقي للسكن في مقابل أن هذه الأراضي ملكيات خاصة وكشفت الإحصاءات أن 95% من ملكيات الأراضي الزراعية سنة 84 كانت أقل من خمسة أفدنة للفرد الواحد أصبحت الآن أقل من ثلاثة أفدنة .

ووفقا للتقارير الحكومية الصادرة عن مجلس الوزراء ووزاري التخطيط والموارد المائية - كانت مساحة الأراضي الزراعية القديمة 2.6 مليون فدان في بداية الثمانينيات وصلت الآن إلى 9.5 مليون فدان أي : أن نسبة الفاقد من جراء العشوائيات والبناء على الأراضي الزراعية بلغت 200 ألف فدان.

إذن : هناك علاقة جدلية ما بين طبيعة الدولة وتوجهها التنموي وتفاقم ظاهرة العشوائيات. فإذا ما كانت نشأة العشوائيات في حد ذاتها ترتبط بنمط النمو السائد فإن تفاقمها يرتبط بشكل وثيق بالرؤى والمفاهيم التنموية السائدة والتكوين الاجتماعي لجهاز الدولة.

ملاحظة صغيرة قانونية على مسألة انسحاب الدولة وهي مسألة موجودة وواقعة وهي ظاهرة في عصر العولمة وليس المقصود بها هو انسحاب الدولة كلية ، ولكن انسحابها من مسؤولياتها في تحقيق حقوق الإنسان، ففي مجال السكن نلاحظ انسحاب الدولة واضحا ليس في مصر فقط ولكن على الصعيد العالمي .

فالحكومات تنسحب من مسؤوليتها في ضبط السوق وتوفير إمكانيات المسكن الملائم للفقراء، أيضاً لمنع احتكار مواد البناء. هناك ضغوط من أطراف عديدة من حكومات أخرى، من منظمة التجارة العالمية، من البنك الدولي ، من الوكالة الأمريكية للتنمية ، كل هذه الأطراف تضغط على الدولة للانسحاب من تكاليف مسؤولياتها الاجتماعية بما فيها من خدمات سكنية ، وعندما نتحدث عن انسحاب

الدولة نتحدث عن ثغرات كثيرة بالسوق تحرم الفقراء والمستضعفين من العديد من حقوقهم في المجتمع.

وعندما نبحث عن أيديولوجية الدولة بما فيها مصر يمكن أن نرى تبريرات للسياسات، في مصر مثلاً أجهزة لجنة الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في جنيف ، وهي لجنة تراقب تطبيق القانون الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، لكن هناك قواعد بسيطة وقوانين تحكم توجهات الدولة لقد أطلقت الدولة يد القطاع الخاص وتركته يتحكم في السوق لوحده ، ضاربة عرض الحائط بمصالح الفقراء ، وهذا الوضع موجود في كثير من الدول التي تأثرت بالعملة.

لابد وأن ندرك أنه لا يوجد انسحاب اختياري، ليس للدولة الحق في الانسحاب من مسؤولياتها الاجتماعية والإنسانية، الدولة عليها التزام قانوني للتدخل في السوق لتوفير تسهيلات للفقراء. هناك مسؤوليات قانونية على الدولة لتجنب أية ممارسات للعنف، مثال الإخلاء القسري ، إذا انسحبت الدولة من هذه المسؤوليات سيكون هناك خطر كبير على ومن الفقراء.

وأؤكد على أن ليس هناك دولة في العالم تنسحب، فعلى الرغم من أطروحات ميلتون فريدمان أو توماس فريدمان أو بالأحرى كل مروجي ومشعوذي العملة حول انسحاب الدولة وتحويلها إلى دولة خدمات Service State or Garbage State "أي تحول الدولة إلى هيئة تجمع القمامة وتضعها في تنكات ويقتصر دورها على ذلك" ليس هناك انسحاب حقيقي لأية دولة ، الدولة تغير تحالفاتها الاجتماعية وتغير مشروعها الطبقي. الدولة في مصر لم تنسحب، فمن الذي يقوم بالاستثمار وتطوير البنية الأساسية لتسهيل انتقال العمالة للمدن الجديدة ؟ من الذي قام باستثمار قرابة 400 أو 500 مليار جنيه وفقاً للخطاب الرسمي على مدار العقدين السابقين ؟ لمن تُصاغ هذه المشاريع ؟ وكيف يتم تخصيص الموارد وعلى حساب من ؟ الزبالون

الذين تم نقلهم من أرض اللواء لكي يتم تنفيذ مشروع المحور ، نقلوا بواسطة من ومصلحة من ؟

هذه مشاريع تنفذها الدولة وبأموال الدولة ، الموارد السيادية والضرائب التي يدفعها الجميع إلا أن القسم الأكبر منها يتم إنفاقه لحساب فئة اجتماعية بعينها، الدولة لا تنسحب ، الدولة تغير آلياتها تتنازل عن شطر من استقلاليتها النسبية تحت ضغط الطبقة أو الشريحة السائدة وتحت ضغط ظروف المنافسة الدولية وهذا يأتي على حساب شرائح وفئات اجتماعية بعينها، في هذا السياق يمكن إدراك مفهوم انسحاب الدولة .

#### حريق قلعة الكبش وملف العشوائيات :

تعود مشكلة سكان تلك المنطقة إلى التسعينيات ، حيث تعد منطقة قلعة الكبش منطقة عشوائية تتبع لحي السيدة زينب بمحافظة القاهرة ومعظم سكانها من الحرفيين والعمال من محدودي الدخل ، ومساكنها عبارة عن عشش وغرف خشبية حيث إن هناك أكثر من 250 منزلاً خشبياً ، كما يعاني سكانها من غياب المرافق الأساسية للحياة لخلوها من الخدمات و المواد اللازمة لمتطلبات الحياة .

هذا بالإضافة إلى غياب التخطيط العمراني بتلك المنطقة ومشكلات الصرف الصحي ، كما أن هناك مجموعة من الكتل السكنية التابعة لمحافظة القاهرة والتي سبق وأن منحتها الحكومة للمواطنين لاستعمالها كسكن خاص (إيواء مؤقت ) منذ عام 1993 .

وقد بدأت أحداث منطقة قلعة الكبش في يوم الثلاثاء الموافق 2007/3/20 حوالي الساعة 11 صباحاً باندلاع حريق بإحدى الغرف الخشبية والذي امتد ليشمل الغرف والكتل السكنية المجاورة له حتى وصل إلى ما يزيد عن 200 غرفة وأتت النيران على أكثر من 250 منزلاً من المنازل الخشبية والأكشاك .

وفي يوم الخميس الموافق 2007/3/22 حوالي الساعة الثامنة صباحاً فوجيء أهالي منطقة قلعة الكبش بقوات الأمن و حوالي 20سيارة أمن مركزي و 2 بلدوزر يتوجهون إلى المنطقة المنكوبة ، وقاموا بإزالة مخلفات الحريق وتدخلت قوات الأمن للتعامل مع أهالي المنطقة المنكوبة في محاولة منها لإخلاء المنطقة من الأهالي والسكان لهدمها ، إلا أنهم وُوجّهوا بمقاومة من قِبَل الأهالي نظراً لعدم حصولهم على سكن بديل الأمر الذي تسبب في إحداث مشاحنات بين الأهالي وقوات الشرطة حيث قامت الأخيرة بالاعتداء على المواطنين من سكان المنطقة المنكوبة بالضرب والسحل لإجبارهم غصبا على إخلاء المنطقة ، مما اضطر الأهالي إلى استخدام العنف ورشق قوات الشرطة بالحجارة .

#### محاولات الدولة لحل مشكلة قلعة الكبش :

تحاول الدولة تقديم الخدمات الأساسية للقطاعات الضعيفة من السكان الذين لا يستطيعون الحصول عليها عند مستوى السعر الذي يحقق الربح الأمثل لمقدمها ، وأهمية احتفاظ الدولة بهذا الدور خاصة في ظل وجود نسبة كبيرة من الفئة. و ظراً لأن الحق في السكن من الحقوق الأساسية للإنسان وتحديد الأُسرة باعتبارها هي الأساس في بناء المجتمع.

وعلى المجتمع والدولة إزالة العوائق وحماية الأسرة ورعايتها ولا يمكن تصور ذلك أو تحقيقه دون مأوى وسكن آمن ، ومن هنا تقوم الدولة باتخاذ جملة من الإجراءات العملية والتشريعية من أجل وقف معاناة أهالي منطقة قلعة الكبش ولعل أهمها :

● تقوم الدولة على العمل نحو سرعة تمكين جميع الأهالي قاطني منطقة قلعة الكبش من الحصول على وحدات سكنية بديلة ومناسبة.

● وضع حلول بديلة وفعالة من أجل القضاء على العشوائيات والتي تُعد انتهاكاً لحق الإنسان في عيش كريم يحقق له تمام كفايته وكفاية أسرته

وأمنها ، والذي يشمل المأكل والملبس والمسكن والتعليم والعلاج وسائر الحاجات الأساسية .

سوزان مبارك تستعرض خطوات تنفيذ المرحلة الثالثة من تطوير عشوائيات زينهم :  
استعرضت السيدة سوزان مبارك قرينة السيد رئيس الجمهورية رئيسة جمعية الهلال الأحمر المصرى خطوات تنفيذ المرحلة الثالثة من مشروع تطوير عشوائيات زينهم التى ستنتهى منتصف العام القادم والتى تستهدف الحفاظ على ما تحقق من مكاسب لتغيير وجه الحياة بمنطقة زينهم من العشوائية إلى بيئة حضرية ينعم ساكنوها بكل مقومات الحياة الكريمة.

جاء ذلك خلال الاجتماع ، الذى عقدته السيدة سوزان مبارك وحضره محافظ القاهرة الدكتور عبدالعظيم وزير وممثلون عن الجهات التى ستنفذ المرحلة الثالثة من مشروع تطوير عشوائيات زينهم .  
وصرّح محافظ القاهرة بأنه تم إطلاع السيدة سوزان مبارك خلال الاجتماع على ما قامت به المحافظة من جهود بشأن تسكين القاطنين في المنطقة العشوائية المتبقية في حى النهضة .. مشيراً إلى أنه تم نقل 1107 أسر استقرت في مدينة النهضة وتم إخلاء الأرض ووضع الرسوم التنفيذية.

وأوضح أنه سيقام في جنوب شارع طولون 57 عمارة سكنية وفي شماله 23 عمارة.. مشيراً إلى أن كل عمارة من العمارات الـ 80 تتكون من طابق أرضي يعلوه 3 طوابق وكل طابق يتكون من 4 وحدات سكنية مساحة كل منها 70 متراً مربعاً.

وأشار وزير إلى أن السيدة سوزان مبارك استعرضت مقترحات إنشاء المناطق الخدمية من صحة وأمن ومحال تجارية ذات طراز إسلامي لقرب المنطقة من مسجد " ابن طولون " وكذلك إنشاء مركز للتدريب على الحرف التراثية ..

موضحاً أن الشركات المنفذة للهِلال الأحمر المصرى ستتقاسم العمل في هذه المرحلة مع إدارة القوات المسلحة.

ومن جانبه .. قال الدكتور ممدوح جبر الأمين العام للهِلال الأحمر المصرى الذى شارك في الاجتماع إن السيدة سوزان مبارك أكدت على أهمية الحفاظ على النواحي التراثية المتصلة بشارع طولون والحفاظ على البيئة مع ضرورة توفير المساحات الخضراء الكافية وعدم ارتفاع أدوار العمارات السكنية وأن تفي كل وحدة سكنية باحتياجات أسرة مكونة من 5 أفراد.

وأكد جبر أن هذه المرحلة من مشروع تطوير عشوائيات منطقة زينهم ( البالغ مساحتها 50 فدانا ) تختلف عن سابقتها لأنه سيتم تخصيص أجزاء منها للأنشطة الخدمية وأخرى للأنشطة التدريبية للشباب بالإضافة إلى تطوير المنشآت الصحية والثقافية الموجودة بها.

وأوضح الأمين العام للهِلال الأحمر المصرى أن هذه المرحلة مقسمة إلى 3 أقسام تتخللها أماكن قديمة مراعاة للبعد الحضارى والتراثى للمنطقة .. مؤكداً أن الهلال الأحمر يمول هذه المرحلة تمويلاً كلياً.

وقال إن العمل في مشروع تطوير عشوائيات زينهم ينقسم إلى 3 مناطق .. الأولى محصورة بين مقر الهلال الأحمر بزينهم ومكتبة طلعت حرب .. والثانية شملت تلال زينهم والإيواءات "شرق الخزان" .. بينما تشمل الثالثة عشوائيات قلعة الكباش وزينهم. وأوضح الأمين العام للهِلال الأحمر المصرى أن إجمالى عدد الأسر التى تم حصرها والتى ستستفيد من المشروع يبلغ 3982 أسرة .. مشيراً إلى أنه تم خلال المرحلة الأولى من المشروع ، الذى ينفذ تحت رعاية السيدة سوزان مبارك ، بناء 29 عمارة وبلغ عدد العمارات السكنية في الجزء الأول من المرحلة الثانية 50 عمارة وفي الجزء الثانى من نفس المرحلة 32 عمارة.

وقال : إن المرحلتين الأولى والثانية للمشروع اكتملتا في ديسمبر 2004 وتحقق من خلالهما حلم المسكن الآمن لما يزيد عن ألف أسرة بتكلفة تصل إلى 80 مليون جنيه تم توفير معظمها من خلال المشاركة المجتمعية.

وأكد أن مشروع تطوير عشوائيات زينهم يقدم دليلاً حياً على مواجهة ظاهرة العشوائيات وتقديم الحلول الجذرية لها وأنه ليس بالأمر المستحيل حيث نجح الهلال الأحمر بالتعاون مع محافظة القاهرة ورجال الأعمال في تبني مشروع متكامل لبناء مساكن اقتصادية لائقة لسكان منطقة زينهم ووضع برنامج يهدف للارتقاء بالمستوى الاجتماعي والثقافي والتعليمي والبيئي لسكان المنطقة بهدف الوصول إلى مجتمع يملك كل مقومات التطور والتنمية.

تنبئ الأبعاد السابقة باحتمال تزايد معدلات الصدام والعنف المجتمعيين، وهو ما يثير بالتالي عدداً من الأسئلة تشكل محل اهتمام والتي يمكن رصدها إجمالاً في التالي :  
أولاً : طبيعة السمات الثقافية والنفسية لقاطني العشوائيات، أو بصيغة أخرى مدى صحة الحديث عن نفسية الهامش أو نفسية العشوائيات، محدداتها، أنساقها القيمية والجمالية، الأنماط السلوكية السائدة، الخصوصية النسبية للمكان وأشكال التعاضد الاجتماعي السائدة كمعادل للتمهيش.

ثانياً : التغيرات التي لحقت بأنماط النزوح والتوطن في العشوائيات على مدار العقود الثلاث الماضية، سواء من حيث اختلاف القاعدة الاجتماعية لقاطني الهوامش - هيمنة البرجوازية الصغيرة المدنية- ارتفاع المكون التعليمي لتيارات الهجرة وغيرها، وآثارها على تباين أو تزاوج أشكال الاحتجاج الاجتماعي خاصة تلك المتعلقة بتزايد هيمنة الأيديولوجيات الجهادية ومعدلات العنف الديني داخل المناطق العشوائية.

ثالثاً: حدود الاستيعاب والدمج المجتمعيين في ضوء التحولات الاقتصادية والاجتماعية للواقع المصري ، سواء فيما يتعلق بآثار انسحاب الدولة على الأوضاع المعيشية لقاطني المناطق الهامشية أو بمخططات الدولة لإعادة التخطيط العمراني للمراكز الحضرية.

رابعاً: دور ( المجتمع المدني ) والتي يمكن رصد أهمها في أنماط التعاضد والتكافل الاجتماعي، التبرعات الأهلية، المؤسسات الإنمائية والزعامات المحلية في ملء الفراغ الناجم عن انسحاب الدولة وتخفيف حدة التوترات الاجتماعية الناجمة عن استمرار منظومة التهميش.

#### التنمية الريفية :

تطوير وإعادة بناء القرية المصرية . أصبح في مقدمة أولويات التنمية التي تُوليها الدولة اهتماماً كبيراً نظراً لما يمثله المجتمع الريفي من ثقل سكاني واقتصادي كبير . برنامج " شروق " .. تفعيل للتنمية الريفية :

شروق .. هو البرنامج القومي للتنمية الريفية المتكاملة في مصر .. بدأ هذا البرنامج عام 1994 كوسيلة فعالة لتطوير وتنمية القرية المصرية عبر تفعيل المشاركة الشعبية في التنمية المتكاملة بالريف المصري وتعدد صور المشاركة في هذا البرنامج ما بين التبرع بالأرض أو بالخامات أو العمل البشري فضلاً عن المشاركة بالفكر والرأي في التخطيط والمتابعة.

حيث بلغت جملة الاستثمارات المنفذة بالمشروع خلال العقد الأخير حوالى 2 مليار جنيه ، إضافة إلى نحو 240 مليون جنيه استثمارات مخصصة للتنمية الريفية خلال عام 2005 / 2006 ساهمت في تنفيذ أكثر من 100 ألف مشروع على كافة محاور التنمية الريفية في جميع محافظات مصر بدءاً من توفير مياه الشرب والصرف الصحى ومروراً بتنفيذ شبكة طرق ريفية مرصوفة



تربط القرى الأم بتوابعها كما تربطها بمراكز الإنتاج والتسويق وصولاً إلى التنمية الشاملة لأكثر من خمسة آلاف قرية وتابع .

كما حظيت قطاعات المرأة والطفل والشباب والثقافة في الريف باهتمام كبير من قبل الدولة ليصبح عدد التلاميذ في الريف المصري يمثلون اليوم أكثر من 53% من إجمالي المقيدين بالتعليم قبل الجامعي .

برنامج إعادة تخطيط 4500 قرية . مخطط كامل لتنمية قرى مصر:  
هو برنامج يهدف إلى إعادة تخطيط 4500 قرية مصرية ووضع حيز عمراني جديد لها عن طريق إعداد مخطط كامل لتنمية القرى المصرية حتى عام 2020 بغية تحقيق الآتي :

- الارتقاء عمرانياً بالريف والخدمات المقدمة له .
- تخفيف التكدس وتحسين مستوى المعيشة .
- إيجاد فرص عمل .
- تنمية الاقتصاد المحلي .
- تطوير القرية وتزويدها بكافة الخدمات والمرافق .

## تطوير المناطق العشوائية :

من بين ست عشرة دولة تم اختيار مصر ضمن خمس دول على المستوى العالمى لعرض نماذجها الناجحة في مواجهة العشوائيات خلال انعقاد الجمعية العامة للأمم المتحدة في السادس من يونيو عام 2001 .

فمنذ عام 1992 تصدت مصر لقضية المناطق العشوائية بكافة أبعادها العمرانية والاجتماعية والأمنية عبر استراتيجية بعيدة المدى استهدفت الحد من ظاهرة انتشار المناطق العشوائية في مختلف المحافظات ، وذلك من خلال تطوير نحو 1221 منطقة عشوائية منتشرة في عدد 24 محافظة الى جانب مدينة الأقصر .

وخلال عام 2005 / 2006 بلغت الاستثمارات المنفذة لتطوير وتنمية المناطق العشوائية 192559 ألف جنيه ، موزعة على أنشطة الكهرباء ورصف الطرق والكبارى وتدعيم مياه الشرب وخدمات الصرف الصحى ، إلى جانب عمليات التخطيط والتنظيم ، ووضع نظام متكامل لإدارة المخلفات الصلبة والسائلة مع الاهتمام بالنظافة العامة والارتقاء بالبيئة عبر زيادة المسطحات الخضراء بتلك المناطق .

البرنامج القومى للقضاء على العشوائيات . . ورؤية جديدة للحد من انتشارها:  
في ضوء الرؤى الجديدة للتعامل مع المناطق العشوائية ، تبنت الدولة استراتيجية للارتقاء بالمناطق العشوائية تحت مسمى " المشروع القومى للقضاء على العشوائيات عام 2020 " ، حيث يهدف هذا المشروع إلى وضع رؤية موحدة وبرنامج متكامل تلتزم به كافة أجهزة الدولة وكذلك الجهات المانحة لضمان عدم ظهور المزيد من المناطق العشوائية في مصر.

برنامج الارتقاء العمراني بالريف والحضر .. حفاظ على الرقعة الزراعية :  
هو برنامج يهدف إلى التعامل مع العشوائيات وتحسين الخدمات وتطويرها بتلك  
المناطق.. يسهم البرنامج في الحفاظ على الرقعة الزراعية والسيطرة على العشوائيات في  
ضوء قانون البناء الموحد الجديد .

@booka

## أبعاد ظاهرة العشوائيات

يمكن حصر أبعاد تلك الظاهرة في عدد من النقاط :

**النقطة الأولى :** بداية إن نمو العشوائيات كظاهرة تاريخية مرتبطة بشكل أساسي بنمط وعلاقات إنتاج بعينها في المجتمع المصري ، غير منفصل كيفياً عن أنماط الإنتاج الرأسمالية السائدة في العالم ككل، وإن كان يحفل بتشوهات النمو الرأسمالي المتأخر والتي تتمثل على أحد الأصعدة في التضخم المفرط لظاهرة العشوائيات . فنتيجة للالتحاق المتأخر بالرأسمالية تصبح قدرة هذه الاقتصادات، أو التجمعات المركزية (المدن والمراكز الإقليمية ) على استيعاب ودمج الفئات المهمشة، وإمكانية الهياكل الإنتاجية المختلفة على استيعاب النازحين من الريف أضعف وأبطأ وأكثر تضارباً.

**النقطة الثانية :** أن اللحاق المتأخر أو الطابع المتخلف للهياكل الاقتصادية والإنتاجية في هذه المجتمعات يؤدي لحدوث انقطاعات في عملية النمو الاقتصادي ، وهو ما يؤدي بدوره إلى تضخم مفرط في ظاهرة العشوائيات وتداخل بنيوي لهذه التجمعات العشوائية مع المراكز الحضرية ذاتها.

**النقطة الثالثة :** أنه ليس من الصحيح أن يتم التعامل مع نمط النمو الرأسمالي باعتباره نمطاً خطياً مستقيماً خالياً من الانعطافات أو الانقطاعات فالعكس هو الصحيح بالأساس. فالنمو الرأسمالي يخلق طوال الوقت تجمعات من المهمشين، أسواق أو معسكرات عمل جماعية، تستطيع عبرها وطوال الوقت أيضاً الضغط على تكلفة العمل كأحد آليات الرأسمالية لزيادة معادلات الاستغلال للفئات النازحة.

**النقطة الرابعة :** أن النمو في الحقيقة ذو طابع مركب، بمعنى أن هناك بعض القطاعات ، بعض المواقع التي تشهد تنمية متسارعة، إلا أن هذه التنمية المتسارعة غالباً ما تحدث على حساب مناطق وفئات أخرى ، وهو الأمر الذي يمكن رؤيته

في تركيز الموارد، معدلات تجديد أو توجيه الاستثمارات المختلفة على امتداد المجتمع المصري.

**النقطة الخامسة :** أن التخلف والضعف لنمو الرأسمالي في هذه المجتمعات يؤدي لخلق موجات من النزوح أو التهجير الإجباري من الريف للمدينة فنتيجة لانقطاع سبل المعيشة وإمكانات الارتزاق تولد أو تخلق مدن الصفيح أو القصدير وغيرها ، من ناحية أخرى يتبلور ما يمكن أن نطلق عليه ظاهرة عداء متبادلة ما بين هذه التجمعات أو ما بين هؤلاء المهمشين وبين الدولة، ليس فقط الدولة كسياسات ولكن الدولة كأجهزة.

حيث تركز سياسات النبذ أو الاستبعاد التي تمارسها أجهزة الدولة بمؤسساتها وبثقافتها السائدة استمرارية هذه المجتمعات ، وتكرس انعزالهم وانغلاقهم على ذواتهم، كما أنها في الوقت ذاته تخلق أمماتاً ارتزاقية تدينها في الأغلب الأعم الثقافة السائدة، سواء داخل الاقتصاد الأسود أو داخل الاقتصاد غير الرسمي.

الأمر الذي يؤبد وضعهم أو وجودهم طول الوقت على هامش المجتمع ويجعلهم محلاً لانتقاد المجتمع ثقافياً وأمنياً وهو ما يكرس بالتالي إحساسهم بالابتعاد وبالتهميش ، وبالنبذ ، ويعلي بالتالي من استعدادهم للتمرد أو الاحتجاج أو العنف تجاه هذه السياسات. فالدولة هي المسئولة عن تهيمشهم والدولة هي أيضاً التي تدينهم وتكرس انعزالهم ، وهو ما يخلق العديد من الأممات الاحتجاجية.

**النقطة السادسة :** تتمثل في ضرورة الانتباه إلى أن وتيرة خلق المجتمعات الهامشية لا تتسم بالاتساق بل بالأحرى بالتباين والتنافر. بمعنى أنه لا يصح أن نتكلم طوال الوقت عن نمط واحد فقط من الهجرة سواء في تكوينه الاجتماعي أو في اتجاهه، من الريف للمدينة، فمع انقطاعات وتأرجحات سير التنمية داخل هذه المجتمعات تتواجد ظواهر مركبة أو متعددة.

فمنذ أوائل السبعينات -على سبيل المثال- تبلور نموذج مغاير من الهجرة أو النزوح، هجرة من المراكز الحضرية إلى الأطراف أو الهوامش، هوامش المدن، هذا النمط ارتبط بتوسع هذه المدن، بالتضخم في ظاهرة الحضرة أو التحضر، لكنه أيضاً ارتبط -إلى حد بعيد- بتدني أو تدهور حاد في أوضاع فئات اجتماعية مختلفة عن البروليتاريا الرثة التي شكلت تقليدياً الرافد الأساسي للهجرة مع بدايات القرن الماضي. ومع اختلاف أنماط واتجاهات النزوح والتوطن اختلف التكوين الاجتماعي للعشوائيات، حيث تزايدت نسبة تمثيل البرجوازية الصغيرة داخل المناطق العشوائية. وهي فئات تتسم بارتفاع المكون التعليمي أو مستوياتها العلمية لكن تفتقر إلى حد كبير إلى مهارات العمل التقني وهو ما ينعكس عليها بالضرورة مع تزايد حدة الأزمة الاجتماعية الاقتصادية، في صورة تدهور أوضاعها المعيشية والاجتماعية.

هذا الخليط أو هذا التداخل ما بين الفئات القاطنة في المناطق العشوائية أنتج أنماطاً متباينة أو مختلفة من سلوكيات الاحتجاج الاجتماعي، كذلك فإن أنماط العنف الاجتماعي التي يمكن أن تنجم عن فئات النازحين من الريف تأتي في الأغلب على شكل هبات أو انتفاضات تلقائية، وليدة عنف مكبوت قاعدته إحساس متفاقم بالنبذ والتهميش، وهو التصور الذي تؤيده إلى حد بعيد العديد من الإحصاءات أو الدراسات الأولية -وهي بالطبع ما تزال دون المستوى سواء من حيث الكم - حيث تشير إلى تركيز أنماط من العنف الارتزاقى أو المعيشي، مثال البلطجة في هذه المجتمعات.

وفي هذا السياق من المهم إدراك الطابع المركب لأنماط العنف العشوائي -إذا جاز التعبير- سواء البلطجة أو غيرها، فهي ليست وعلي مدار الوقت أنماط عنف منطقية أو ارتزاقية أو تطوراً طبيعياً أو نتيجة طبيعية لاستفزازات مباشرة لهذه الفئات. ففي بعض الأحيان تمثل هذه الأفعال العنيفة أو الاحتجاجية محاولة للثأر أو الانتقام من هذا المركز الذي يخلقهم وينبذهم ويهمشهم.

من ناحية أخرى وبالتوازي شهدت بدايات السبعينات بزوغ أنماط أخرى من العنف، بشكل أساسي العنف الديني ؛ حيث ارتبط بزوغ هذه النوعية من ممارسات العنف أو الاحتجاج باختلاف أنماط الهجرة وأنماط الاستيطان داخل المجتمعات العشوائية، البرجوازية الصغيرة المدنية بالأساس بسماتها المتميزة من ارتفاع مكوّنها التعليمي ، إحساسها المتزايد بالحرمان النسبي كنتيجة لتهميش الدولة لها ، وعيها الذي يغلب عليه الميل بشكل أعلى لتبنيّ الأيديولوجيات السلفية أو المحافظة، فكرة الحنين أو النوستالجيا لمجتمع ونمط علاقات ما قبل الرأسمالية ، مجتمع ما قبل تهميشهم، والتي يمكن اعتبارها بمثابة الحضانة أو الأرضية الملائمة لتوطين إيديولوجيات العنف الديني وتوطين أساليب الاحتجاجات أو إعلاء نسبة الاحتجاج في معطاه أو في مظهره الديني .

النقطة الأخيرة تتمثل في أن هذه الأزمة التي يشهدها المجتمع المصري، والتي تجسد تشوهات النمو الرأسمالي المتأخر هي في الحقيقة مرشحة للتفاقم . فالأزمة الاقتصادية والاجتماعية تتفاقم طوال الوقت، لقد تجاوز ذلك الوضع حيز التصور حيث أضحى واقعاً ملموساً ، فعلى مدار السنة الأخيرة فقط انخفضت المستويات المعيشية لمجمل الشعب المصري بنسبة 30%، كنتيجة لاختلاف سعر صرف العملة، أو بمعنى أدق خفض القيمة الشرائية للجنينة المصري.

من ناحية أخرى قد تتخلى الدولة عن دورها كمنتج وموظف وبالتالي فإن هذه الفئات التي كانت تجد ملجأ في حضن الدولة، وهو ما كان يتيح بالتالي إمكانية استيعابها وإدماجها إنتاجيا وثقافيا وسلوكيا، قد تدهورت أوضاعها الاجتماعية والمعيشية إلى حد كبير، أيضا هناك تفاقم لضغوط الرأسمالية العقارية -في إطار محاولتها لتجاوز الأزمة العضوية للرأسمالية المصرية- لإعادة التخطيط العمراني.

في هذا السياق علينا الانتباه إلى ثقل الرأسمالية العقارية باعتبارها شريحة أو فئة أساسية من النخبة الحاكمة بالمعنى الاجتماعي، فهي ترى في هذه الأماكن الهامشية أو العشوائية خاصة تلك المتواجدة داخل كردون المدينة للمراكز الحضرية فرصة مغرية للاستثمار ، ولذلك فهي تضغط على أجهزة الدولة وعلى حساب هذه الفئات. هذه معاملات في مجملها تطرح إمكانية متزايدة لتفاقم معدلات العنف الاجتماعي بشقيه : العنف العشوائي أو التلقائي ، والعنف الانتقامي الثأري ، وأيضاً إمكانية لعودة ظهور أو بزوغ العنف الديني.



## أثر القهر السياسى على ثقافة العنف

لقد كان القهر السياسى وفساد النظم السياسية والإدارية مصدراً أساسياً من مصادر تكوين سليات الطابع القومى على حد قول العديد من الباحثين والكتّاب ، منهم المستشرق وليم لين ، كما رصد عبد الرحمن الكواكبي في سفره المهمل " طبائع الاستبداد ومصارع العباد " العديد من الصفات السلبية التى تلصق بالشخصية المصرية نتيجة القهر والاستبداد ، وهما ما ميّز النظم السياسية الحاكمة آنذاك ، وحتى ذلك يقول :

" العوام هم قوت المستبد ، قوته بهم عليهم يصول ، وبهم غيرهم يطول يأسرهم فيتهللون لشوكته ، ويغصب أموالهم فيحمدونه على إبقاء الحياة ، ويهينهم فيشنون على رفعتهم ، ويغرى بعضهم على بعض فيفتخرون بسياسته وإذا أسرف بأموالهم يقولون عنه كريم ، وإذا قتل ولم يمثل يقصد لم يمثل بجثة القتيل يعتبرونه رحيماً ، ويسوقهم إلى خطر الموت فيطيعونه حذر التأديب وإن نقم عليه منهم بعض الأباة قاتلهم كأنهم بغاة الحكومة المستبدة تكون مستبدة طبعاً في كل فروعها من المستبد الأعظم أى الشرطى ، إلى الفراش إلى كناس الشوارع ولا يكون كل لا يهمهم جلب محبة الناس ، إنما غاية مسعاهم اكتساب ثقة المستبد فيهم بأنهم على شاكلته وأنصار لدولته وشهون لأكل السقطات من ذبيحة الأمة ، وبهذا يأمنهم ويأمنونه فيشاركهم ويشاركونه " .

أدى هذا الاستبداد إلى تأثيرات سلبية في أخلاق الناس ، كما أثر على تكوينهم الثقافى فالقهر السياسى وإضافة للقهر الاقتصادى أدى إلى إضعاف الأخلاق الحسنة وإفسادها .

مما يجعل الإنسان يكفر بنعم مولاه لأنه لم يملكها حيث الملك يحمدونه عليها حق الحمد ، ويجعله حاقداً على قومه لأنهم أعوان المستبد في استبداده به ، كما يجعله ذلك فاقداً لحب وطنه لأنه ليس مطمئناً على دوام علاقته معها ، وتختل

الثقة في صداقة أحبائه لأنه يعلم منهم أنهم مثله لا يملكون التكافؤ وقد يُضطرون لإضرار صديقهم بل وقتله وهم باكون .

أسير القهر والاستبداد يملك شيئاً ليحرص على حفظه لا يملك مالاً غير معرض للسلب ، ولا شرفاً غير معرض للإهانة ، ولا يملك الجاهل منه آمالاً مستقبلية ليتبعها ويشقى كما يشقى العاقل في سبيلها .

والاستبداد والقهر السياسى يضطر الناس إلى إباحة الكذب والتحايل والخداع والنفاق والتذلل ومراغة الحس وإماتة النفس .

وهذا الاستبداد يتخلل بعد ذلك علاقتنا الاجتماعية والعائلية ، فالطفل وهو جنين نجد في الغالب أن أبويه متشاكسان ، ثم إذا تحرك في بطن أمه حرك شراستها أو ضربه وإذا أنها ضيقت عليه مقره ألفتها الانحناء خملاً أو التقلص لضيق الفراش ، ومتى ولدته ضغطت عليه باللفافات ، فإذا بكى تألماً سدّت فمه بثديها أو شفثيه مخدراً في جزء في نفقة الطبيب فإذا ما فطم يأتيه الغذاء الفاسد يفسد مزاجه ، فإن كان طويل العمر وترعرع يُمنع من الرياضة وتضييق البيت . فإن سأل واستفهم ليتعلم يُزجر ويُلكم لضيق خلق أبويه ، فإذا قويت رجلاه يدفع به إلى خارج البيت إلى مدرسة الألفة على القذارة وتعلم بعض الشنائم والسباب فإن عاش ونشأ ووُضع في مكتب ( كُتّاب ) أو عند ذى صنعة يكون أكبر القصد ربطه عن السلاح والمراح لا يبرح يقاسمهم شقاء الحياة ، ويجنى غيره كما جنى عليه أبوه ، ثم هو يتولى التضييق على نفسه حتى بتشغيل الثياب التى تقيد حرية حركة جسمه ويتولى المستبد الضغط والتضييق على عقله وعلمه وأمله .

ومن قاموس الأمثال الشعبية التى أبدعها التراث الثقافى كأحد مظاهر تكيّفه مع القهر والاستبداد السياسى نسوق الأمثلة التالية :

- ارقص للقرد في دولته .
- اربط الحمار مطرح ما يحب صاحبه .

- الى بدك تقضيه امضيه ، واللى بدك ترهنه بيعه ، واللى بدك تخدمه طبعه.
  - الى يتجوز أُمى أقوله يا عمى .
  - إن دخلت بلد تعبد العجل حش وارمى له .
  - وإن كان لك عند الكلب حاجة قوله يا سيدى
  - الإيد الى ما تقدرش تقطعها بوسها .
  - بات مغلوب ولا تبات غالب .
  - حاكمك غريمك إن ما طعته يضيملك .
  - ضرب الحاكم شرف .
  - طلب الغنى شقفة ، كسر الفقير زيهر.
  - رضينا بالهم والهم مش راضى بينا .
- والأمثال السابقة تحض على الخضوع والنفاق والاستسلام كأسلوب أمثل للتعامل مع السلطة المستبدة ، ومن الأمثال التى تحض على المداواة والبعد عن الصراحة والمواجهة كأسلوب للتعامل مع القهر السياسى نرصد الأمثال التالية :
- اكتم شرك تملك أمرك .
  - اكره ودارى وحب ووارى .
  - الى تداريه تغلب فيه .
  - وحد يقول للغولة عينك حمرة .
  - حُطْ رأسك وسط الروس تسلم .
  - دارى على شمعتك تقيد .
  - امسكن لما تتمكن .
  - فى الوش مراية وفى القفا سلاية .

كما أوضح المثل الشعبي عاقبة خدمة السلطة والانصياع لها منها :

● آخر خدمة الغز علقه .

● آخر المعروف ضرب الكفوف .

● الى تقول عليه موسى طلع فرعون .

كما أن هناك قهراً اقتصادياً لسكان العشوائيات فإن هناك قهراً سياسياً وهو الانسياق وراء العنف، والعنف هنا يأخذ عدة أشكال وليس شكلاً واحداً الارتزاق عن طريق البلطجة وهو شكل أصبح شائعاً حالياً ، ليس لأنهم يفضلون البلطجة ولكن لأنه لا سبيل آخر أمامهم غير البلطجة ، وأحياناً ما يكون ذلك بدافع الانتقام أو نتيجة لانضوائهم تحت لواء الجماعات الإرهابية ، نظراً لما يحققه لهم ذلك من ارتزاق وانتقام وأيضا ادعاء الإصلاح وهذه هي الأيديولوجيا التي يعملون وفقاً لها ، فهو ليس لصاً ولكنه بلطجي بالفعل، يرتزق عبر هذا الطريق ، لكنه يحمل لواء دعوة أيضاً.

فمن المبالغة بعض الشيء أن نزعّم أن العنف السياسي نشأ فقط في المناطق العشوائية ، حتى مع الإحصاءات التي أقدرها جيداً والصحيحة كلية والتي تشير إلى أن 55.2% من الأصول الاجتماعية للتنظيمات الجهادية من أبناء بولاق وإمبابة ، يمكن أن يكون ذلك صحيحاً في سنة من السنوات كما أشارت الإحصائية.

لكنني أزعم أن المناطق الفقيرة عموماً يمكن أن تكون حاضنة، ولا أقول المناطق الفقيرة ولكن شديدة الفقر، لأمثال هؤلاء، وأن تؤدي لإفراز ظواهر سلبية عديدة من بينها العنف، إلا أنه ليست هناك ضرورة أن تكون هذه المناطق مناطق عشوائية والدليل على ذلك محافظات الصعيد، وهى محافظات شديدة الفقر وبالذات المنيا وسوهاج ، وتقارير التنمية البشرية قد أكد ذلك ، ففي هاتين المحافظتين بوجه التحديد برزت كثير من الجماعات التي مارست العنف .

أيضاً أتصور أن تضاؤل فرص الحياة التي تحفظ للإنسان حقوقه الأساسية سواء الغذاء ، الكساء ، المسكن ، التعليم أو العمل بأجر مناسب ، هي التي تدفع للعنف بكافة طرقه ، إذا ما تزواج غياب هذه العناصر المتفاعلة مع بيئة غير مستقرة وباشتراط افتقارها لعنصر الأمن الاجتماعي ، في هذه الحالة تصبح النتيجة شبه المؤكدة هي العنف، ذلك العنف الذي نراه أحيانا موجهاً ضد الدولة ، وطبعاً الأمثلة كثيرة، والهبات في 1977 ، 1986 تؤكد هذا بوضوح، فهذه الجموع أو الفئات المحرومة والمقهورة كانت تنتظر هذه اللحظة.

إن الفئات الهشة الضعيفة المهمشة تتأثر أكثر، بيد أن الخطير في هذا الصدد لا يقتصر على العنف الاجتماعي ، أو العشوائيات أو غيره، وإنما يتمثل فيما تؤدي إليه من إفقار شامل وما يترتب عليه من فقدان للاستقرار وتراجع معايير وآليات الضبط المجتمعي، وهذا ما أراه يحدث بالفعل وأخشى أن يمتد أكثر من ذلك فقد صار فعل أي شيء ممكناً ، ولا يتورع أي شخص عن فعل أي شيء بالطريقة التي يرضيها وفي الزمان والمكان الذي يرضيه.

وهذه حالة أثرت بالطبع على بنية المجتمع كله، وعلى كافة الأصعدة ، لكنها أصابت الفقراء في مقتل بطبيعة الحال ، وذلك طبعاً لأن انسحاب الدولة لم يحدث بالصدفة ولا في لحظة عارضة بدون أسباب موضوعية ، ولكن بهدف تحقيق ما يسمى بالإصلاح الاقتصادي ، وهو إعادة الهيكلة الرأسمالية ليس أكثر. فذلك هو الهدف الرئيسي وهو ما أدى لانسحاب الدولة الذي أدى بالتالي لمضاعفة الأعباء الاجتماعية والمعيشية على كاهل الفئات الأفقر .

للتدليل على هذه الصيرورة يكفي فقط أن نشير إلى ما يسمى بالمعاش المبكر والذي يتم تطبيقه في إطار إعادة الهيكلة الرأسمالية، فالعمال الذين تركوا أعمالهم في إطار المعاش المبكر تدهورت أوضاعهم المعيشية بشكل بالغ الحدة ، فوفقا لبحث ميداني نقوم بإجرائه حالياً عن هذا الموضوع، هبطت مواقعهم الطبقيّة إلى أسفل مقارنة بما كانوا عليه عندما كانوا يعملون بأجر ضعيف " أخذوا مبلغ

وطار وأصبحوا متعطلين لا يتحصلون أساساً على المبلغ الذي كانوا يحصلون عليه من قبل.

إن هناك اختلافاً في أنماط العشوائيات نفسها ، المشهد الحالي للتركيبة الاجتماعية في العشوائيات يشي أن هناك عدم تجانس، لا يوجد تجانس في التركيبة الاجتماعية في المنطقة العشوائية الواحد أحياناً ، خاصة إذا كانت متضخمة مثال منشية ناصر على سبيل المثال ، فالبعض يتصور منشية ناصر منطقة واحدة متجانسة، بالمناسبة نحن نمتلك 1200 منطقة عشوائية في القاهرة وحدها أكثر من 80 إلى 83 منطقة عشوائية ، من أهمها منطقة منشية ناصر ، التعداد يحدد عدد سكانها بحوالي 100 ألف ، ولكن السكان أنفسهم يحددون عددهم بنحو ثلاثة أرباع المليون ، أي أن هناك ما يتراوح ما بين 600-700 ألف مواطن يسكنون هذه المنطقة وحدها.

إنه لا يوجد تجانس في المنطقة العشوائية الواحدة ابتداءً بأصول السكان ومحدداتهم إلى نوعية حياتهم إلى مصادر دخلهم إلى كل محددات التركيبة الاجتماعية، لا يوجد تجانس بل على العكس السائد هو التفاوت، وهو أحياناً تفاوت بالغ الشدة من اليسر إلى شدة الفقر وهم ينتمون إجمالاً إلى الأحياء الفقيرة "العشوائيات" لكن هذه الشرائح في فقر شديد جداً.

المفروض أن هيئة التخطيط العمراني تقوم ببعض الضغوط، ووزارة التنمية المحلية الآن ألقت على عاتقها مسئولية العشوائيات، والمحليات في المحافظات أيضاً تتولى هذا الجانب ، لكن حتى الآن لا توجد استراتيجية من أي جهة من هذه الجهات لتبني قضية العشوائيات، المحاولة الأخيرة التي يبذلها وزير التنمية المحلية في هذا الصدد هي تلك المتعلقة بفتح ملف لكل منطقة عشوائية وهو جهد مشكور ونتمنى أن يستكمل ويتابع ويكون بداية للحل.

إن من يتصور أو يحلم أن الدولة قادرة على إزالة هذه المناطق العشوائية هو شخص يعيش في أوهام متعددة وليس وهم واحد، فذلك حل لا يمكن تحقيقه ، ما

يتم فعلاً هو قيامهم بإزالة المناطق التي لا تصلح نهائياً للسكن ، ومن أهمها مناطق العشش في أي مكان، وذلك بالفعل مدخل مهم لكن التطوير والترقية والارتقاء كما يقال هو المخرج الوحيد ، الحلول المؤقتة كثيراً ما تكون أشبه بالمسكنات كما حدث في منشية ناصر .

لكن لا بد من إيجاد استراتيجية واضحة ، ماذا يمكن أن يتم فعله في هذه العشوائيات المتزايدة، بالمناسبة فإن العشوائيات لم تقف عند حد لكنها متزايدة يوماً بعد يوماً ، من يتصور أن سكان العشوائيات هائمون على وجوههم دائماً ويبحثون عن عمل وجميعهم بلطجية ، يقع في خطأ التعميم المخل ، هذه ليست الحقيقة فإن لهم أصولاً ثابتة ومهنًا يعملون بها، لكن هنالك بالطبع البعض ممن يعملون في مهن إجرامية.

وهناك علاقة عضوية بين أنماط الارتزاق وأنماط السكن، فهي موجودة في بعض العشوائيات دون بعضها الآخر ، في الحوتية على سبيل المثال ، وعلى هذا الصعيد فإن هناك قصة لأحد الباحثين يسردها : حيث كان يقوم بعمل دراسات حالة بعد رفع المنطقة ، وكان هناك امرأة مُسنة تعيش في بيت ليس آيلاً للسقوط بل هو متهدم بالفعل ، فقد كان السلم مهدماً وكان هناك بدلا منه سقالة يستخدمونها في الصعود لأعلى ، وتم ملاحظة وجود "غسيل" في أعلى المنزل ، فتم فتح الباب فوجد السقالة وأبلغ برغبته في رؤية المرأة المجنونة ، وجدها كما توقع .

فعندما قاموا بالإخلاء الإداري للمنزل قاموا بتسليمها خيمة في مركز شباب الحوتية ، وعرضوا عليها شقة في الحوامدية بقسط 80 جنياً في الشهر وبدون مقدم، فرفضت معلنة رغبتها في الإقامة في المنزل المتهدم ، عندما سألتها عن السبب أو الدافع، قالت لي "أنا بيع ملون وخضرة هنا وجوزي ممرض في مستشفى العجوزة التي تبعد 200 متر وأولادي يعملون في الورش الموجودة في الحوتية ، وأنا بريح العضمين فوق ومفيش مشكلة".

أي : أن أنماط الارتزاق أو التعيش تدفعهم دفعا إلى الحياة في هذه الأماكن . لكن ليس هذا النمط السائد فقط ، فهناك أنماط مختلفة، هناك أعمال مستقرة مدرة للدخل في المنطقة أو خارجها .

@booka



## السمات النفسية لقاطني العشوائيات

### اختلاط الحابل بالنابل :

بيد أن هناك تساؤلاً خاصاً بنفسية الهامشي أو الساكن العشوائي، فهذا نوع من المبالغة الشديدة، فليس هنالك تركيبة نفسية نوعية أو مفارقة لقاطني العشوائيات، الشيء اللصيق بالعشوائية السكنية والمسكن بوجه التحديد physical هو ما يسمونه في دراسات السكن the personal space ( الحيز الشخصي ) وهو مهدر أو بالأحرى غير موجود وغير قائم وشديد المحدودية في هذه المناطق.

وذلك ليس نتيجة لمعيشة فردين أو ثلاثة أحياناً في غرفة واحدة، فدراسات الحيز الشخصي تعني بمسألة قضاء الحاجة والاستحمام والعلاقات الزوجية ، فإذا كانت تلك الممارسات الخاصة والشخصية مشاعاً يصبح على المكان السلام ، ليس على المسكن لأنه لن يصبح مسكناً في هذه الحالة ، إن هذا الحيز الشخصي غير متوفر بالفعل في نمط، لن نقول عشوائيات، ولكن في نمط العشش على وجه التحديد .

### التحاييل على الفقر :

لذلك عندما أقول أنه ينبغي أن تزال فإنها بالفعل ينبغي أن تزال، هذا جانب من الجوانب المهمة والتي يجب دراستها لأنها لن تنتهي في يوم وليلة ، هنالك أيضاً النمط العشوائي للسكن ، دراسة أساليب التعايش، مقاومة الفقر والتحاييل عليه وتلك مسألة بالغة الأهمية في هذه المناطق ، فتلك الفئات ليست ساكنة أو مستسلمة لقدرها التعس ، ليسوا جميعاً بلطجية ولصوص .

هناك كتل من البشر يتحايلون على حالة الفقر الشديدة في هذه الأماكن وهناك العديد من أمثلة استراتيجيات التحاييل تلك، فنظرًا لعجز العديد من الأسر عن إعداد غذاء يومي لها، فإن هناك ظاهرة موجودة بانتشار هناك وهي

"الغذاء الجماعي"، حيث تتفق عشر أسر أو بالأحرى عشر عشش على إعداد وجبة كشري على سبيل المثال .

وفي هذه الحالات لابد أن تكون هذه الوجبات بكميات ضخمة تكلف كل أسرة أو كل مجموعة من سكان العشة ثلاثة أو أربعة جنيهات وتوفر وجبة كبيرة تكفي الناس جميعهم . هذه صورة أو نموذج من أساليب التحايل على المعاش ، كما يقال ، في هذه المناطق الفقيرة .

وهناك أساليب كثيرة على هذه الشاكلة ، في حالة الزواج، المرض وهو كثير في حالة البحث عن عمل ، في كل شيء ، في صور مختلفة ، وقد تم إجراء دراسة عن الإنفاق الاجتماعي ، وكانت هذه الأساليب ، أساليب التعايش مع حالة الفقر شائعة ومنتشرة وخاصة في المناطق الفقيرة، وهذا ما يجعل العديدين يتساءلون في حيرة عن قدرة هذه الفئات على الصبر والتحمل والاستمرار، والإجابة تكمن في وجود هذه الميكانيزمات القائمة والمتجددة فالمصري لا يجد إلا هذه الأساليب المبتكرة والمتجددة دائماً حتى يبقى على قيد الحياة .

### الإيمان بالخرافات كعنصر ثقافي :

ومن الملامح المميزة لثقافة الفقر في مصر الإيمان بالخرافات التي تأصلت في مجتمعنا ، فأصبح من يؤمنون بها يسرون في حياتهم على عوائد ومبادئ سلوكية لا يحيدون عنها رغم أنها مبادئ بالية أكل عليها الدهر وشرب ، ولكن تبدو عليهم السعادة من أجل تمسكهم بتلك العادات والخرافات ، فمثلاً تراهم يؤكدون عند " كتب الكتاب " ، عقد قران أو زواج أنه " إذا انحطت حنة سكر تحت لسان العروسة وبعدها انحطت في كوب ماء وشرب منه العريس يتفقان مع بعضهما " .

وتراهم يذكرون عن يقين أن العاقر إذا طلعت السلم بالعكس تستطيع أن تحمل بعدها " كذلك إذا تأخر أحد الأطفال عن التكلم قالوا " دقى الميه في الهون يخلى العيل الى ما يكلمش يتكلم " ، كما يؤمن هؤلاء بما يعتقدون أنه علم الكوتشينة وعلم الفنجان وطوالع الرجال والنساء ، وما يسمى بالطوالع الحدس وغيرها .

كل هذه العلوم الزائفة تعيش وتزدهر في المجتمع المصرى في ظل مناخ ثقافي اجتماعى لا يرى الاعتراف بالعلم المصرى .

كما يؤمن آخرون بما يسمونه " العلم اللدنى " وهم لا يعترفون بالعلم المصرى أيضاً ، ويرون أنه لا علم إلا للعلم اللدنى ولكنهم لا يستطيعون إثبات أى شئ عن هذا العلم الذى يدعونه كما لا توجد أدلة لديهم على وجوده أو الفائدة المرجوة منه سواء في الدنيا أو في الآخرة .

وللوصول إلى هذا العلم مستويات ومنازل وأساليب الوصول إليه عديدة ومن هذه الأساليب ( حلقات الذكر ) ومعلوم أنه سواء كانت جنابات أو جناحاً أو مخالفات ، وسواء كانت جرائم منظورة أو غير منظورة.

تعاليم الإسلام الجلييلة تدعو إلى ذكر الله سبحانه وتعالى على أن يكون هذا الذكر بالطرق الواردة في الكتاب والسنة الصحيحة ، والملاحظ أن حلقة الذكر قد أصبحت حالياً ظاهرة اجتماعية تعددت وظائفها ، فهي تُعقد في الموالد وفي الأفراد وفي المواسم نجد ذلك فيما يسمى بـ ( الحضرة ) في حفلات الموالد في حفلات الزواج وفي حفلات الطهارة وفي شهر رمضان ، وقد تكون حلقة الذكر الأسلوب الوحيد للاحتفال ، وقد تكون أحد الأساليب للوفاء بالنذور .

والملاحظ أن المنتسبين إلى هذا العلم يدعون العلم بكل أنواع العلوم ، فهم العلماء المصريون تارة ، وهم العلماء حفظة التراث المصرى الأصيل تارة وهم العلماء الدنيويون الواصلون العارفون تارة ثالثة ، ولعل وجود هذه الظاهرة في المجتمع المصرى مرجعه إلى ضعف تأثير العلماء المصريين في الوقت الحاضر ، ومن ثم إلى غلبة العلماء الآخرين .

والتعرف على أهل الفهولة ليس أمراً صعباً فأنت تجد الأشخاص الذين يبحثون باستمرار عن أقصر الطرق وأسرعها إلى تحقيق الأهداف الدنيوية والأخروية على السواء ، كما أنهم يتجنبون العناء والجهد المطلوبين عادة في اجتياز العقبات للوصول إلى تحقيق هذه الأهداف والغايات .

ومن سمات علماء الفهولة والشخصية الفهلوية ما نلاحظه عندما يعجزون عن تقبل الحقائق الموضوعية أى : عندما يعجزون عن تقبل الواقع وفقاً لما تفرضه الظروف الحرجة من تصريف سريع مما يضطرهم إلى إخفاء العيوب والفشل والنقائص بغية إنقاذ المظاهر والحفاظ على ماء الوجه .

كما يتسم الفهلوى بأنه يدعى معرفته بكل شتى ، ويرى أن الباقي لا يعلمون ولا يعرفون شيئاً ، كما يُعتبر من المدافعين والرافعين لشعار " أهل الثقة " أولاً ثم أهل الخبرة أخيراً ، وأخيراً فالفهلوى هو الانتهازي والمتلوى والمنافق.

ومن العناصر المؤثرة في التراث الثقافي علم الحكمة ، وله سبع وسائل كما يتمكن منه طالبه ، وهى : علم الأعداد ، وعلم الأوقاف ، وعلم الحروف ، وعلم الطبائع الأربعة على الكواكب والأفلاك والبروج والمنازل ، وعلم الاختبارات النجومية وسعدها ونحسها وشرفها واتصالاتها علم الأسماء والرُقى والدعوات .

وقد أُلُفَتْ في هذه العلوم السبعة مؤلفات كثيرة ، ومن هذه الكتب نجد كتاب منابع أصول الحكمة " للإمام بن على البونى " ويتضمن أربعة أقسام هى : الأصول والضوابط - ريفية المشتاق في معرفة الآفاق - شرح البرهنية المعروف بشرح العهد القديم وشرح الجلجوتية الكبرى .

كذلك هناك كتب أخرى مثل الطائف الإشارة في خصائص الكواكب السيارة) ، ومن الكتيبات التى أُلُفَتْ في تلك الموضوعات الخاصة نجد كتيباً يحمل عنوان المندل الخاتم السليمانى والعلم الروحانى للإمام الغزالى ويتضمن كما يقول المؤلف جملة أبواب وأقسام وطلاسم وفوائد وأفاق في العالم الروحانى

كذلك كثير من الفوائد العظيمة المُجربة التي يحتاج إليها كل فرد في جميع حوائجه .  
والزايحة الهندسية في كشف الأسرار الخفية ، وكتاب أسرار في علم الأخبار و " إغاثة  
المظلوم في كشف أسرار العلوم و " سحر الكهان في حضور الجان " .  
"والكباريت في إخراج العفاريت " والمشتمل على القدرة الإلهية في المعالجة  
الروحانية ، والحكمة الربانية في المعالجة الجنسية ، وكشف اللثام عن جعفر الإمام.  
وغير ذلك من الكتب جعل هذا النوع من العلوم الخرافية تملأ مناخنا الثقافي حتى  
الآن ، ولا يزال يجد مريدين في كل أنحاء مجتمعنا المعاصر وبخاصة في محيط سكان  
العشوائيات والريف وإذا لاحظنا أن للكوتشينة علماً وأن للفنجان علماً فما رأى  
المؤمنين بتلك العلوم وأنصارها في علوم الطب والكيمياء والبيولوجيا ؟ ولكن ما هي  
أهداف تلك العلوم الخرافية ؟

نلاحظ أن من يمارس هذه الوسائل يدعى القدرة على التصرف على جميع ما في  
الكائنات من خير وشر وجلب وطرء .  
أما ميادين هذا العلم القائم على الدجل والشعوذة والتنجيم فهي تشمل كل ما  
يخطر على بنى البشر من أمور تتصل بشئون حياتهم وحياة من حولهم وأن تتصل  
بأحلامهم وأحلام من حولهم ، وقد تتضمن ما يتعلق بالصحة والمرض والمحبة والعداوة  
وبقضاء المهمات وبجلب النفع وبدفع الضرر وما يتعلق بالزواج والطلاق ورفع الظلم  
باستخدام الملائكة وباستحضار الأرواح العلوية والسفلية وتسخيرها عن طريق ممارسة  
هذه الطقوس بطريق مباشر أو غير مباشر .

يعتقد الكثيرون من أعضاء مجتمعنا المعاصر أنهم يستطيعون مثلاً تحقيق  
الغنى والصلاح والفلاح ونوال القبول والعز والرفعة والبركة وكشف الخبايا  
والكنوز وجلب التوفيق والصواب وجلب الهيبة والوقار وجلب الفتوح وتحسين

الأخلاق ونوال المناصب والترقى وفهم العلوم وزوال البلادة ، وبسط الرزق وجلب الزبون ورد الأبعد وجلب الخُطاب والصلح بين المرأة وزوجها أو نقل الصخور .

كما تملكتهم تلك العلوم السحرية ، كما يؤمنون بذلك من عقد لسان المؤذى وتسليط الصداق والحمى على الظالم ، ورجم دار الظالم أو إخراجه من داره أو إهلاكه أو قمعه أو إخضاعه وإصابة الظالم بالنزيف وغيرها من المصائب .

كما يؤمنون في كرامات الأولياء وبقدرة الأولياء على فعل أى شىء مهما كانت درجة استحالة تحقيقه ، ومن الأمثلة الطريفة على ذلك أنه في الخامس من أكتوبر عام 1955 أرسل أحد المواطنين الطيبين رسالة إلى ضريح الإمام الشافعى يطلب فيها من الإمام الشافعى عقد جلسة شريفة يحضر فيها معه سيدنا الحسن وسيدنا الحسين والست زينب أم هاشم وجميع أهل بيت النبى ، وذلك لمسح وإزالة إسرائيل واليهود من على وجه الأرض المقدسة في خلال أسبوع .

ومثال آخر لذلك أنه عندما وردت الأخبار إلى القاهرة باحتلال نابليون الاسكندرية ورشيد ودمنهو وزحفه على القاهرة اجتمع العلماء بالأزهر في هذه الآونة كل يوم يقرأون البخارى وغيره من الدعوات ، وكذلك اجتمع مشايخ فقراء الطريقة الأحمدية والرفاعية والبراهمة والقادرية والسعدية وغيرها من الطوائف وأرباب العشائر ويعملون هم مجالس بالأزهر وكذلك أطفال الكتاتيب يذكرون اسم الله اللطيف وعدة من أسماء الله الحسنى.

ويروى لنا طه حسين في سيرته الذاتية " الأيام " أنه لما حل وباء الكوليرا بقريته وتساقط الكثيرون بسبب هذا الوباء اجتمع رجال الدين ووُزعت الأحجية ( حجاب على الأهالى لتمنع عنهم الوباء ) .

إن تأثير الإيمان بالعلوم السحرية والطقوس الخرافية علم الأفلاك والبروج والرقى والدعوات والطالب وغيرها على عقل الإنسان المصرى في ضوء ظروفنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية تأثير رهيب إنه لأول وهلة يُيسر لهذا الإنسان البحث المستمر عن أقصر طريق لتحقيق آماله ، إن تأثير هذا الوهم يُجنّب الإنسان

المصري المعاصر العناء والجد المطلوبين في اجتياز العقبات للوصول إلى تحقيق هذه الأهداف والغايات .

### ضعف وسُخرة :

ويتركز هذا في موضوع انسحاب الدولة فهو شيء يربعنا ، الكلمة نفسها ثقيلة وكأننا في حالة حرب إنما مصر لها تفرد وهى من المجتمعات المتميزة بثقافة معينة، مصر عبارة عن صحراء كبرى من المغرب إلى الخليج، صحراء يخترقها شريط من النيل يتركز الناس حوله منذ عصر الجفاف .

إذن هناك نوع من الطغيان البيئي، البيئة أجبرت الناس منذ القدم على الاستقرار على جانبي النيل، قبل الطغيان من أول يوم، وقبل الطغيان فيما بعد، لأن الفرعون كان لابد أن يقيم سلطة تنظم وتضبط مياه النهر وتنشئ القنوات وكان الفرعون يجمع الضرائب من الناس بالسخرة وخلافه وهو تأسيس لمبدأ الطغيان الذي لم يعد طغيان الحاكم فقط إنما طغيان المحكوم يطلبه.

كل المصريين يقولون "الى مالوش كبير يشتريه كبير وهايلاقى حد كبير يتحامى فيه" إذن : هناك ثقافة تسمى ثقافة الطغيان ، مثل ثقافة الفقر كل من هو في سلطة يطغى فإذا لم يكن هناك من يطغى فإن الناس تسعى إلى إيجاد من يطغى عليها ، وهو شيء تعودناه منذ 10000 سنة، النتيجة هي هذا الكلام ، أصبحنا في حاجة إلي ولى أمر، الشعب المصري يتحامى فيه .

## المجتمع المدني والدور الإيجابي

وهناك نقطة أخرى مهمة يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار هي تلك المتعلقة بالقطاع غير الرسمي ، ما الذي يمكن عمله لتعظيمه وتعزيزه حتى يساعد هذه الكتل من السكان على الحياة والبحث عن عمل أو فرصة دخل.

وعن حدود فعالية مؤسسات المجتمع المدني "أحزاب-نقابات-جمعيات أهلية" وهل تعتبر بديلاً بعد انسحاب الدولة ، طبعاً هذه المؤسسات جميعها موجودة ولكنه وجود رمزي وليس وجوداً حقيقياً وفاعلاً ، لقد رأينا على سبيل المثال كيف يتعامل السكان مع مشكلة المياه في "عزة خير الله" وتلك مسألة مهمة جداً، فالهضبة عالية وكلما صعدنا لأعلى اختفت المياه "والي تحت يبيع المياه لي فوق" والخدمات الموجودة تحت مش موجودة فوق، والدولة غائبة عن هذا تماماً.

والوسائل التي يبتكرها القاطنين هناك تعكس ذلك الفقر المدقع، فالانتقالات تتم بواسطة سيارات متهاكة وبدون أرقام ، أي غير مسجلة في إدارة المرور ، وطبعاً لا تخرج خارج حدود المنطقة ، وبالطبع فإن تلك السيارات يمكن أن ترتكب ما تشاء دون خوف من عقاب أو مساءلة ، في جو ظلام وبدون خدمات .. الخ.

على ذلك فإن وجود الجمعيات الأهلية في هذه المناطق وجود صوري ، وجود للسباح لكي يتفرجوا عليه، لكنه ليس وجوداً حقيقياً رغم أهميته.



## مستقبل محاولات ضبط النمو العمراني :

حول مستقبل محاولات ضبط النمو العمراني ، هل يمكن ضبط النمو العمراني فعلاً في سياق تركيبة اجتماعية على هذه الشاكلة، ربما، من المؤكد أن هناك اجتهادات ومحاولات جادة ونية صادقة من قبل القائمين بمحاولات ضبط النمو العمراني، لكن طبيعة الامتلاك الاقتصادي والاجتماعي وتفرد طبقة اجتماعية بعينها بكل خيرات الوطن وبأنانية شديدة لدرجة تثير السخط والحقد الطبقي.

وهو ما أشرنا إليه سابقاً في المفارقة المتمثلة ما بين بولاق والزمالك أو بولاق ووسط البلد، فالجمهور العادي والبسطاء يشاهدون يومياً النمو الاقتصادي والسيارات التي تبلغ قيمتها الملايين والعمارات الشاهقة التي تُبنى يومياً وكذا وكذا، كما يرون الطابع المنحاز للقوانين والتشريعات الجديدة، مثال القانون الجديد الخاص بالتمويل العقاري والذي يرمي لتنشيط شريحة الرأسمالية العقارية، تلك التي اقترضت من البنوك وترفض السداد حالياً.

كذلك فإن ما يتعلق بطبيعة الاستراتيجيات المطروحة، فحتى لو كان هنالك استراتيجية، هل يمكن أن نقول صناعة الاستراتيجية على المستوى الجزئي أم على المستوى الكلي، وفي النهاية نقف عند تعبير "نحن بنى المكان والمكان بيننا".

وقد ذكّرني ذلك بتعبير آخر وإن كان من زاوية أخرى، تعبير نحته يحي الطاهر عبد الله في حكايات الأمير، عندما قال : إن الفقراء يبنون العمارات ولكن لا يسكنونها، وينسحب الصاعدة بعد بناء العمارة ويتركون كبيرهم بواباً عليها وتصبح المعركة بعد ذلك بين الأكبر سناً والآخرين المنتظرين موته كي يحلوا محله. إنها مجرد مقارنة.

الناس كانت تردد وتجتز كلاماً معاداً ، فمن كان يذهب إلى المناطق العشوائية إما صحفيين يجرون تحقيقاً، أو باحث اجتماعي يجري دراسة أو بحثاً ثم يتلاشون بعد ذلك، "الناس ملوا زهقوا"، لدرجة أنهم عبروا عن سخطهم من هذه الزيارات بقولهم "ما تسيبونا في حالنا، يعنى انتو بتفكرونا بالقرف اللي إحنا فيه" .

فكانت نصيحتي لأي باحث أو طالب كلية فنون جميلة، لأنهم يجرون كل سنة دراسات على هذه المناطق، "خد معاك ولو باكو شمعدان هدية للأطفال الصغيرين حتى الناس تحس إنها استفادت من الحوار اللي تم معاك ، أو تخلق نوعاً من الألفة" على هذا المنوال.

وهناك نموذج كمنطقة الشرايبة ، وتم سؤال الأشخاص الذين التقيناهم "تقدري تعملي إيه؟" إحدى النساء قالت : أقدر أعمل فرشاة أبيع عليها شوية خضار ، واحدة أخرى تباع شوية فاكهة ، غيرها هتجيب فول نابت وتعمل عشاء ، غيرها عايزة ماكينة خياطة لأنها شابة وتعرف تخط.

المهم حاولنا نلبى طلبات البقالة الصغيرة تلك، وحاولنا متابعة التجربة وطبعاً جميع هذه المشروعات فشلت بعد وقت قصير، والسبب الدائم لذلك ظروف الحياة القاسية والفقر الشديد، "النهاردة الولد تعب وعايز يروح للدكتور ومفيش فلوس فاضطريت أبيع فرشاة الفاكهة والخضار بأي ثمن علشان أوديه للدكتور ، العيال جعانين بالليل ومفيش أي حاجة ، فكلوا البسكويت والحاجات.

" واحد شاب مدمن وطلبت معاه بالليل ومفيش أي حاجة طَبَّ على عشة الست العجوزة وقلب الحلتين الألومنيوم وباعهم علشان يجيب الكيف بتاعه في هذا اليوم".

هنالك أكثر من رجل أعمال ذهب لتلك المناطق، بهذه الطريقة يتم ضرب عصفورين بحجر واحد، أولاً تحقيق مسألة المصداقية المفقودة كلية فيما يتعلق بالجمعيات الأهلية ، فكنت أحاول أن أثبت له أن تبرعاته تصل لمستحقيها بالفعل الشيء الثاني هو خلق صلة مباشرة بين الطرفين، لأنه لن يصدق إلا لما يشوف

ويتأثر كإنسان ، والحمد لله ، مسألة الطيبة والحس الإنساني فينا كمصريين عالية قوى .  
فهناك العديد من النماذج النبيلة بين رجال الأعمال لكن القضية لخصتها إحدى السيدات في أحد الأيام عند توزيع التبرعات قبل العيد "طب النهاردة اتعشيننا، بكرة هنعمل إيه؟" من الصعب للغاية أن ترد عليها بإجابة مقنعة، لأنها حلول مؤقتة لا تُسمن ولا تغني ، فالمشكلة في جوهرها هي ذلك النقص الأيكولوجي .

كلنا في أماكننا، الصبح كل واحد بيروح لشغله، هما برضه كل واحد فيهم بيروح شغله، البت اللي بتمتهن الدعارة تشوف الأماكن بتاعتها، الشاب اللي بيوزع المخدرات والحبوب بيروح مناطق التوزيع وغيره. لكي لا أطيل عليكم ، ما أريد قوله هو أن فكرة عمل المشروعات بالشكل الذي أتبعه حالياً، توفير ملابس الدراسة ، توفير عمل للبعض ، مساعدات بسيطة، لا تسمن ولا تغني من الجوع بل بالعكس .

وربما يكون ذلك مثاراً لاهتمام المتخصصين والعاملين في هذا المجال، فالبعض يقول إنكم تساعدونهم على الفساد، فمساعدتهم مادياً تجعلهم يعتمدون عليك ويتوقفون عن محاولة البحث عن عمل أو تحسين ظروفهم المعيشية ، طالما المعونة تأتي بسهولة وبسيطة ، وطبعاً بعض رجال الأعمال يتبرعون بمبالغ "كويسة"، إيه اللي يخليه أو يخليها "تمرمط" نفسها وتقع طول النهار تشتغل عند ده ولا ده.

القضية الحقيقية هي اختلاف وتعدد الأنماط، فداخل منطقة العشش الواحدة يمكن أن يتواجد أكثر من نسق . طبعاً نحن لم نتحدث عن العشوائيات بمفهوم العمران والمتمثل في مناطق مزدحمة وخالية من المرافق، وفي هذا السياق أريد أن أشير إلى قضية أخطر هي الإسكان الشريك.

فحتى تعداد 1986 كان هناك 1.2 مليون أسرة في الإسكان الشريك، أي قرابة خمسة ملايين فرد، طبعاً مع التعداد الأخير وزيادة النمو السكاني، فإن هذا العدد لا بد وأنه تضخم. القضية في الحقيقة غائبة عن الناس، نحن نتحدث عن العشوائيات ولكن قضية الإسكان الشريك لا يتناولها أحد في حلول عملية.

هناك تجربة Solidair في لبنان ، إنها نموذج إيجابي يمكن الاستفادة منه وقد أثّرت هذه المسألة في مؤتمر رجال الأعمال المصريين-السعوديين ، ولأن الشيخ صالح كامل كان له دور في تمويل Solidair فقد طرح نفس الفكرة وصدرت الجرائد بخبر يحدد رأس مال الشركة بحوالي 500 مليون دولار ، وبدأ الكلام عن أنهم على وشك حصر السكان في بعض المناطق، ونقلهم لأماكن جديدة لكن نتيجة لخلافات بين بعض الرؤوس الكبيرة "الحيثان" بمنطق "إن محدش ياكل الفطيرة لوحده"، فشلت هذه المسألة.

البنك الأهلي أيضاً نظر لموضوع ( عشش الترجمان ) بشكل اقتصادي، المنطقة حيوية ولو تم هدمها وإعادة تخطيطها فإن سعر الأرض في المنطقة يضمن أرباحاً هائلة.

الحقيقة اجتهدوا للغاية وتم إجراء أكثر من مناقصة في محافظة القاهرة ولكن الحيثان رفضوا مجدداً ، عرقلوا المسألة ، فتوقفت. ما أريد قوله أن هذه المناطق شبت كلام والناس ملّث وتطالب بحلول عملية ، أما بالنسبة لموقف الدولة ، فأنا شخصياً أؤيد انسحابها، ولا أؤيد الحلول الأخرى فالمطالبة بدولة مسئولة عن الاستثمار والإنتاج والتوظيف ستؤدي لخلق مجتمع اتكالي ، مجتمع له نمط غير تنموي ، يكرس نفس الأزمات التي نعانيها حالياً.

فعلي سبيل المثال وطبقا للإحصاءات المتوافرة فإن هنالك حوالي 5.50 مليون موظف في مؤسسات وأجهزة الدولة المختلفة ، وتلك الأخيرة في إطار سعيها لحل تسعى لاستيعاب حوالي 170 ألف شخص آخر كموظفين حكوميين، أي أن قرابة 40% من إجمالي العمالة موظفون لدى الحكومة -طبقاً لتصريح رئيس الوزراء د. عاطف عبيد- بالطبع هذا الإحصاء يضم العاملين في الشرطة والجيش.

المجتمع المدني و كيفية تنفيذ استراتيجية التخطيط العمراني:

على الرغم من أنها ستتكلف مئات المليارات ، فإن الرد يكمن ببساطة في هذه الفكرة، المجتمع المدني سيقوم بدوره، كل فرد في هذه الدولة مسئول. الجمعيات الأهلية لابد وأن تكون على وعي، وينبغي أن يتم تمكينها من القيام بدورها وتولي مسؤولياتها في مرحلة التخطيط والتنفيذ والمراجعة وخلافه.

فعندما نقول إن هذه الخطة ستتكلف 220 ملياراً ، "هي الدولة هتدفع 220 مليار ، مش هتدفع" نحن حالياً في منشئة ناصر نطبق نظاماً نطلق عليه "مجموعة المستفيدين" كتجربة، أي أنه مشروع إرشادي نختبره كي نطبقه في جهات أخرى "بنجيب Estate Holders أو المستفيدين ، حتى ولو كان تاجر مخدرات يبجي ويقعد معايا ، وعاملين مبنى هناك يبجي يناقش ويخطط معايا، وينفذ التخطيط ويراقب التنفيذ" في هذه الحالة يصبح تقلص دور الدولة ظاهرة مطلوبة وصحية.

## العمل على التنمية بالمناطق العشوائية

الحقيقة على الرغم من أنها مناطق عشوائية إلا أنها أو بالأحرى العمل بها في غاية الإمتاع، حيث يسعى الجميع للعمل والمساعدة للارتقاء بهذه المناطق. يتم العمل في ثلاث مناطق على حسب التقسيم الحكومي في القاهرة شمالية وجنوبية (1) وجنوبية (2)، الشمالية تضم الشراية، الزاوية ، روض الفرج والمناطق المحيطة بهم، الجنوبية (1) تضم السيدة زينب ومصر القديمة والخليفة، الجنوبية (2) تشمل دار السلام وعزبة خير الله.

ويتم العمل في كافة مجالات التنمية : تعليم ، صحة ، بيئة ، تنمية اقتصادية وهناك طريقتان للعمل حيث توجد قطاعات عديدة في الهيئة ، لكننا قطاع التنمية وهو غالباً أهم قطاع في الهيئة . قطاع التنمية هو الذي يهتم بالفئات المهمشة في المجتمع، وطريقتنا مختلفة عن أية هيئة دولية تعمل في نفس المجال ، فهذه الهيئات غالباً ما يكون عندها برامج جاهزة وتسعى لتطبيقها ، "عايزة تصرف فلوس وتجيّب غيرهم" ، وأول طريقة للعمل تتمثل في محاولتنا للمساعدة في خَلْق مظلة للجمعيات الضعيفة ، حيث نسعى لعقد دورات تدريبية لها ، وتشكيل مجلس إدارة قوى بحيث يستطيع ممارسة دوره كما نحاول غرس مفهوم الشفافية ، ذلك المفهوم الذي يصعب أن تجده في جمعيات أهلية كثيرة، "بتحاول تأخذ فلوس وخلص وتصرفها في أي غرض ، ومعندهاش أي بنود للصرف ، ومعندهاش الرغبة في أنها تشتغل ، الجمعيات معمولة بس على الورق ، بس علشان تفتيش الشؤون الاجتماعية"، إلا أن ذلك لا ينفي وجود جمعيات حقيقية .

### التنمية بالمشاركة :

وهى تعتمد على أن نقيم في المنطقة وفي نفس الوحدات السكنية، حيث يتم القيام بتكوين فريق يقوم بدوره بتقسيم المنطقة ، فعلى سبيل المثال تم تقسيم "زينهم" إلى مناطق حسب الحواري الموجودة، أو عدد البلوكات وكان كل فريق مُكوّنًا من موظف أو موظفة يحاول التعرف على البيوت على الطبيعة ، ثم بعد ذلك يحاولون التعرف على القيادات الطبيعية والمتميزة وتجميعهم في هيئات أو تكوينات تطوعية وتعليمهم أساليب العمل واستراتيجياته ، وقد أثمرت هذه الطريقة ، ففي الشهر الماضي قام هذا التكوين بإشهار جمعية أهلية .

وهذه الطريقة فعالة وصحيحة لأنها تركز على القيادات الطبيعية والعفوية في المنطقة ، وتخلق تكوينات قادرة على مباشرة تنمية المنطقة بشكل دائم "لأن احنا مش هنقعد لهم على طول".

والحقيقة منطقة زينهم فيها كل يوم قصة وكل يوم حكاية، حيث تري العجب في هذه المنطقة ، فمنطقة زينهم من المفروض أنها طبقا للتوجه الحكومي أو كلام الجرائد ، ثلاث مناطق، المنطقة الملاصقة للهلال الأحمر ، وقد تم تطويرها عندما أتت السيدة سوزان مبارك لافتتاح مبنى الهلال الأحمر ، المنطقة كان عمرها نحو خمسين سنة ، عبارة عن أكشاك خشبية تم تسليمها عن طريق الحكومة "اسمه كده كشك خشب" مساحته حوالي ثلاثة في ثلاثة ، هذا بالطبع كان قديماً لكن بعد ذلك تباينت المساحات واختلفت أنماط البناء، ومع ذلك ظلت الأكشاك متواجدة .

الحقيقة المنطقة كان فيها ما لدّ وطاب ، والسيدة سوزان مبارك عندما رأت المنظر وما يحويه من قبح أصدرت أوامرها بضرورة إزالته، فتم تكليف لجنة من وزارة الشؤون الاجتماعية بإجراء دراسة، وقد ظهرت بعض المشكلات مثل تسليم أشخاص شقق بديلة في النهضة بدون وجه حق . لقد تم تسليم وحدات سكنية بديلة في مثلث حلوان وفي المقطم وغالباً جزء من النهضة .

وفي المقابل تمت إعادة تخطيط منطقة زينهم وفي الحقيقة فقد تم تصميمها بشكل خرافي ، منتجج سياحي حقيقي 60% مساحات خضراء و40% مباني. لكن كانت هناك العديد من العيوب في المشروع ، من أهمها أن السكان الذين تم نقلهم لم يكونوا يدركون هل سيعودون إلى المنطقة أم لا.

وكما أشرت كانت هناك عيوب كثيرة في المشروع ، من بينها أن عدد الأسر التي تم نقلها بلغ 900 أسرة ، بينما بلغ عدد الأسر التي رجعت حوالي 347 أسرة لم تكن هناك قواعد معينة للنقل والتوطين وإعادة التوطين. كانت هناك تصورات عن القواعد مفادها أن المسموح بعودتهم هم الغير مسجلين خطر والمعوقين ، أما الآخرين فلم يكن مسموحاً بعودتهم.

ورغم ذلك فكثيراً ما كان يتم اكتشاف أن العديد من السكان قد قاموا ببيع وحداتهم السكنية ، "لأنه كان قاعد في وسط البلد راح مثلث حلوان ، شغال في وسط البلد ، أولاده في المدارس ، كل الرزق والظروف ، يعنى حوالي 25-30 سنة موجود في المنطقة ، لما يُنقل لمثلث حلوان ، قهر بكل المقاييس . مثال على ذلك موظفة في مركز شباب زينهم لا يزيد راتبها الشهري عن 90 جنيهاً ، أصبحت مضطرة لتحمل نفقة الانتقال من حلوان لزينهم وبالعكس يومياً ، لقد كان هناك العديد منهم يكون فعلياً ، "مش قادرة تسبب الشغل لكي لا تصبح عاطلة وفي نفس الوقت بتصرف أكثر من 90 جنيهاً مواصلات .

من ناحية أخرى عندما تم الانتهاء من مشروع زينهم وتمت إعادة السكان ، رفضت الجهات المسؤولة تملكهم الوحدات السكنية الجديدة ، وأعطتهم عقود إيجار مؤقتة لمدة خمس سنوات ، وهو ما أدى بالطبع لتذمر السكان وزيادة إحساسهم بعدم الأمان أو الاستقرار ، في الحقيقة الناس سواء في الذهاب أو في العودة كانت مرهقة ومستنزفة ومفتقدة للأمان بشكل كامل .



بالإضافة لذلك حدثت مشكلات كثيرة، تساؤلات حول معايير التسليم والأولوية، وذلك فضلاً عن الطريقة المهينة التي تم اتباعها في تسليم الوحدات السكنية ، حيث تم التسليم بالاستعانة بقوات خاصة وأمن مركزي ، وقد كانت هناك مشاكسات كثيرة نظراً لرفض السكان مغادرة المكان ، فعلاً الرغم من الإجهاد والمعاناة التي كانوا يواجهونها في مسكنهم ، إلا أنهم تمسكوا به نظراً لارتباطه برزقهم ، فضلاً عن ارتباطهم بالمنطقة ومدارس الأطفال، باختصار ارتباط حياتهم في مجملها بالمكان.

أيضاً ساهمت المعاملة المهينة التي تعرضوا لها في حلوان في زيادة تذمرهم، حيث كانوا عُرضة للعديد من المضايقات والضغوط الأمنية، فنتيجة لمجيئهم من مكان موبوء كانوا مشتبهاً بهم على الدوام ، "فدائماً ما كان بوكس الحكومة موجود وكل الي نازل من العمارة كان بياخده لقسم الشرطة" وهذا الكلام سمعته من الناس شخصياً.

المناطق الأخرى التي نعمل بها حالياً هي شرق الخزان وغرب الخزان ، فمنطقة زينهم يوجد بها خزان هائل تم إنشاؤه لتغذية قسم كبير من القاهرة ، هذا الخزان منذ تمت إقامته لم يعمل لأنه انضح أن به عيوباً في المباني وشروخاً لأن بناءه تم على أرض عالية، وغالباً حدث هبوط في الأرض ، هذا الخزان يدّعي نادي شباب زينهم ملكيته لأن بنائه تم على أرض تتبع له، المهم شرق وغرب الخزان .

وقد تم تغطيتها كلها من ناحية التنمية بأبعادها المختلفة، عيادات للأطفال وعيادات للحوامل وتنظيم أسرة وتوعية وتحسين بيئة وحملات علاجية مختلفة الأنواع ، والناس هناك تحس بوجود تلك الجمعيات لأنها لا تطرح برامج جاهزة عليهم ، ولكن تتعرف على المشكلات في البداية ثم تحاول حلها ، وقد ترتب على ذلك علاج العديد من المشاكل وتحسين نوعية الحياة بدرجة ملحوظة.

هذه المنطقة يرجع تاريخها إلى عقد السبعينات وقد تم تسليمها من قِبل الحكومة ، لأنها أساساً ، في الأصل ، لم تكن عشوائيات ، بل كانت عبارة عن منطقة خالية ، كانت حدائق ليمون ، وكانت الحكومة في حاجة لإقامة مساكن إيواء مؤقتة للمواطنين الذين تعرضوا للإخلاء الإداري، ومن ثم أقاموا هذه المساكن كانت في البداية عبارة عن غرفة وصالة بدون سقف وبدون مياه وبدون صرف صحي ودورات مجمعة، دورة مياه للسيدات ودورة مياه للرجال.

وقد قامت الحكومة بإعطاء السكان عقد إيجار، عقد إيجار مؤقت لمدة سنة وإلى الآن ما زال العقد معهم، "يعنى هاتقعدوا هنا سنة وبعد كده هانقلكم لما نشوف سكن بديل، طبعاً السنة لسه مخلصتش"، بالطبع تلك المباني لم تظل على حالها بل شهدت تغييرات كثيرة، ففي مرحلة لاحقة قامت الحكومة ببناء وحدات سكنية أخرى أطلقوا عليها اسم الأربعات ، عبارة عن أربع غرف في مبنى واحد ويتم تسكينها بواقع غرفة لكل أسرة ، وأقاموا دورات مياه هذه المرة ، وقسموا هذه الوحدات على أساس أن كل أسرتين لهم دورة مياه.

أي : أن كل غرفتين لهم دورة مياه ، وطبعاً أكثر المشاكل موجودة في الأربعات مشاكل بمختلف أنواعها ، سواء دعاة ، إدمان ، تجارة مخدرات ، وطبعاً وجود أربع أسر في حيز واحد يستخدمون حماماً يفصل ما بينهم وبينه حائط غير مكتمل "مش جايب لآخر السقف" يتسبب في مشكلات كثيرة ومتكررة .

من ناحية أخرى شهدت هذه الوحدات العديد من التعديلات والتجاوزات، فبعض من استلموا هذا السكن قاموا ببيعه ، ومن قاموا بالشراء أخذوا في بناء غرفة أخرى تلتها غرفة وهكذا ، والنتيجة أنه لم يعد من الممكن معرفة السكن الذي تم تسليمه من قِبل الحكومة ، ففي البداية كانت هناك غرفة وصالة ، ثم أصبحت ثلاث غرف بجوار بعضهم .

وبعض السكان لم يكتفِ بذلك فشرع في بناء غرفة من هنا وغرفة من هناك ثم قام ببناء دور ثانٍ وثالث وهكذا. كان هناك أشخاص تسلمت الأكشاك العلوية وهى من الناحية الثانية من الخزان ، كشك خشب، هذه الأشخاص تملك حالياً خمس شقق ، فقد كانت هناك مساحة خالية حول الكشك ، ومن ثمَّ فقد شرع في البناء دون أن يعترضه أحد.

هذه الأمثلة كثيرة حيث يقوم بعض الأشخاص بالاستحواذ على المساحات الخالية والبناء عليها ، حتى ولو كان هناك آخرون في حاجة ماسة لها.

طبعاً هذه ليست نهاية المطاف، فالصعادية على سبيل المثال لهم جزء مخصص هناك، في منطقة أعلى قليلاً ، وقد استحوذوا على قسم كبير للغاية من المنطقة هذه المنطقة لم يكن بها مساكن على الإطلاق كما لم يكن بها أكشاك، والأغلب أنهم زحفوا من تلقاء ذاتهم وشرعوا في البناء في المناطق الخالية، ابتدئوا ببناء أكشاك خشبية وطوروها بعد ذلك لغرف مبنية ، وبعد ذلك من لديه قدرة مادية قام ببناء غرفتين وصالة.

وهذه المنطقة من أسوأ المناطق، فهناك مساحات لا تتجاوز متر × متر ونصف ، ويقيم بها شخص أو شخصان أو ثلاثة ، وهناك وحدات أخرى لا تتجاوز مساحتها 3 أمتار × 3 أمتار ويقيم بها نحو عشرة أشخاص "معليين السرير شوية علشان العيال يناموا تحت وجزء ينام فوق"، طبعاً الغرفة غير صالحة بتاتاً للسكن ، وهم في الحقيقة عندهم قوة للتحمل أكثر من الآخرين، فهم يتحملون هذه المعيشة دونما مشاكل .

من ناحية أخرى ، ساهمت ظواهر عدة في مفاقمة الأوضاع السيئة في هذه المنطقة من بينها ، أو في مقدمتها الإجرام، ففي هذه المنطقة يوجد أشخاص متخصصون ويرتزقون من الأوضاع القائمة، "فهناك ناس متخصصة لما تدخل المنطقة تقول أنا عايز سكن يقولك عاوزه فين، مثلاً في المنطقة دي، يقولك

خلاص تعالى بعد بكره خد أوضة في المنطقة دي وهات 500 جنيه، ويروح باني أوضة في أي منطقة هو عاوزها ويقولك خلاص الأوضة دي بتاعتك".

وعندما تم تسليم المساكن للمنطقة العليا، تم تسليم كل شاغر غرفة شقة بدلاً منها ، زادت هذه التحايلات، فمن ناحية ارتفعت أسعار الغرف، على أساس أن هذا الشخص أو الأسرة سيتسلم شقة بدلاً منها في يوم من الأيام ، ومن ناحية أخرى بدأ هؤلاء الأشخاص أو بالأحرى العصابات يفرضون على الباحثين عن غرف التوقيع على إيصال أمانة على بياض لإلزامه بتسليم الشقة التي ستُخصص له مستقبلاً لهم.

نتيجة لذلك هنالك أشخاص أصبح من حقهم استلام 300 شقة في المنطقة وأسر بكاملها في المقابل لا حول لها ولا قوة تتخلى عن حقها مقابل الحصول على غرفة عاجلة يقيمون فيها. هذه الأوضاع أدت لارتفاع سعر الغرف بشكل هستيري، حيث وصل سعر الغرفة لنحو 3000 جنيه ، أحياناً يتم تشييدها من الخشب الحبيبي، بالطبع كل خامه ولها سعرها، "عاوز خشب حبيبي وأنت تبنيها لما تفرج معاك تعملها طوب، مش مشكلة".

هذه الظاهرة تفاقمت بشكل مبالغ فيه على مدار السنوات الأخيرة، وأحد أسباب تفاقمها القرارات والتصريحات المتضاربة التي تصدر من كل من الحكومة ووزارة الشؤون الاجتماعية ، فعلى سبيل المثال كانت هناك تصريحات في الجرائد أن الحكومة ستشرع في تنفيذ مرحلة ثانية للتسكين الدائم في المنطقة مثلما حدث في المنطقة المجاورة للhal الأحمر .

لقد استفضنا في التأكيد على أن العشوائيات ليست ظاهرة جديدة وأنها ترجع في نشأتها إلي بداية الدولة المركزية الحديثة، بل وربما لتاريخ الفتح الإسلامي . وحتى إذا ما عدنا لمصر الحديثة ، أو بمعنى آخر مصر الخديوية ، فسنكتشف أن وجود العشوائيات في القاهرة كعاصمة قد ارتبط عضوياً ، على سبيل المثال بمشروعات إسماعيل باشا لتحديث وفرنسة العاصمة حيث تم نقل وإعادة توطين

أعداد كبيرة من السكان لتنفيذ مشروعه لتخطيط القاهرة ، ما أود التأكيد عليه أو بالأحرى توضيحه أن انسحاب الدولة يؤدي لتفاقم الظاهرة ولكنه لا يؤدي لخلقها.

ما يؤدي لخلق ظاهرة العشوائيات هو نمط التنمية المتبع في حد ذاته، نمط التنمية السائد، فالنماذج المشار إليها في إطار استعراض أهمية القطاع الخاص والتنمية في مصر في بدايات القرن العشرين، طلعت حرب وبنك مصر وغيرها، هي التي أدت لنشأة المجتمعات العشوائية والهامشية، سواء في شبرا أو في كفر الدوار وغيرها.

فهذه المناطق ظهرت بالأساس كأماكن لتسكين الفلاحين المعدمين الذين لفظتهم الأرياف، وبدأ استيعابهم داخل القطاع الصناعي الناشئ وبالتحديد قطاع النسيج، فاختيار هوامش المدن لتوطين هذه الجموع لم يتم جزافاً أو عرضاً ولكن بناءً على محددتين أساسيتين .

**الأول :** اقتصادي ويتمثل في انخفاض تكلفة التوطين في هذه المناطق نظراً لافتقارها للبنية الأساسية والمرافق.

**والثاني :** أمني ، فالهامش يحول دون انتقال قمرات أو تدمرات هؤلاء الفلاحين /العمال إلى داخل العاصمة أو المدن الكبرى ، كما يتيح إمكانية ضبطهم وحصارهم .

لقد كانت العاصمة مرتبطة وعلى الدوام بنمط تنمية محدد، حتى أثناء المشروع الناصري ، بالطبع كان حجم هذه الظاهرة أقل مما لا يُقاس ، بيد أنه لم يكن هناك مفهوم تنموي لهذا النظام ، لأنه في النهاية نظام طبقي له تصورات ومشروعاته ، ويعاني من ضغوط المنافسة بشكل أو آخر ، حتى المجتمعات الصناعية التي نشأت في عهده والتي كانت أكثر تخطيطاً وأكثر تنظيماً.

حلوان على سبيل المثال ، تعاني حالياً وبعد 40 سنة من نشأتها من تشوهات هيكلية ، فما زالت هناك ولاءات أولية أو ثقافات فرعية بمعنى انتماءات جهوية وعصبية وعشائرية وإقليمية هي السائدة ، فعندما نتحدث عن النسيج الاجتماعي لحلوان نتحدث عن رابطة أبناء المنوفية ، رابطة أبناء سوهاج ، رابطة أبناء قنا. ولم يحدث في الحقيقة تحضر واندماج واستيعاب مديني أو "قومي" ينهي أو يطور هذه الولاءات ، وهو ما يصبح عُرضة للتفجر في لحظات الأزمات الاجتماعية.

هناك نقطة تتعلق بصحة ومدى إمكانية الحديث عن تركيبة نفسية نوعية للعشوائيات، فالتعبير "نحن بنبي البيوت، والبيوت تبيننا" تكرر ذات المفهوم أو التصور "الخصوصية النفسية لقاطني العشوائيات" على الأقل بدرجات .

فنحن حين نتحدث عن المجتمعات العشوائية لا نعني فقط فئات اجتماعية قريبة من بعضها البعض في تصنيفها الطبقي، ولكن كذلك عن أنماط ارتزاقية ، عن ثقافة يتم صياغتها وبلورتها ، ومن ثم تكريسها داخل هذه المجتمعات، نتحدث عن أنماط من التعاطف والتكامل الاجتماعي، عن نسق قيمي كامل.

إننا هنا لسنا معنيين بشكل جدي بتصورات وأطروحات أوسكار لويس أو فالتنن على سبيل المثال حول ثقافة الفقر، إلا أننا في النهاية لو اعتمدنا فكرة الحيز الشخصي والتي تتمثل في حرمان فئات عريضة من قضاء أو إشباع احتياجاتها الآدمية الأولية في حرية وانكشافها على الآخر في أشد سلوكياتها خصوصية .

ألا يثير ذلك نوعاً من الصراع بين الأنساق الثقافية والقيمية والجمالية السائدة وبين ضغوط المكان وواقع الانكشاف، ألا يؤدي ذلك لإعادة صياغة هذه المفاهيم لخفض قبضتها الإلزامية كمرحلة أولى ، ثم بلورة منظومة موازية أو بالأحرى مغايرة لتبرير الأنماط السلوكية المفارقة -مقارنة بالسائد- بمعنى آخر ألا يمكننا الحديث عن صيرورة تكيف، أو Adaptation تؤدي "لتزاوج" معايير العيب ومعايير الحرام لتخلق في النهاية معايير ومفاهيم وقيماً جديدة تبرز الأنماط السلوكية والارتزاقية السائدة.

إن المثل المتعلق بتواطؤ الرجال مع زوجاتهم اللواتي يمتهنّ الدعارة في عشش الترجمان ، ألا يثير ذلك صراعاً بين أنماط الارتزاق "الدعارة" والقيم الذكورية السائدة ، ألا يؤشر ذلك لوجود نسق قيمي أو أخلاقي مغاير للسائد ذي طابع تبريري أو براجماتي يعد -على الأقل إلى حد ما- انعكاساً لحالة التهميش والنبذ التي تعانيها هذه الفئات في مواجهة المركز الذي يخلقهم ويضطهدهم في الوقت ذاته.

ألا تخلق المجتمعات الهامشية أنماطاً تكافلية بديلة للأنماط التي تفككت بعد هجرتهم من القرية وتلاشي شبكات ومنظومات التكافل التقليدية ، مثال الأسرة الممتدة والجماعة الدينية وغيرها. ألا يخلقون داخل هذه المجتمعات أنماطاً جديدة من التكافل .

في دراسة حديثة للمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية أعرب ما بين 60-70% من القاطنين في العشوائيات عن رفضهم مغادرتها إذا ما أتيحت لهم الفرصة ، المسألة بالطبع ليست متعلقة بنوعية السكن أو الخدمات .

ففي هذه المناطق لا يوجد في كثير من الأحيان ما يمكن وصفه بالسكن وفقاً للمفهوم التقليدي فضلاً عن الغياب الكامل أو شبه الكامل للخدمات ، المسألة برمتها تتعلق بنوعية المجتمع ، ذلك المجتمع الذي يمكن تشبيهه تجاوزاً بالجيتو "الحي اليهودي القديم" الذي يخلق أنماطاً ارتزاقية ومهنياً مرتبطة بالمكان وعلاقات وأنساقاً قيمية وثقافية وإحساساً بالأمان. إن المزية الأساسية لهذه المجتمعات تجاوزاً ، تتمثل في قدرتها على توليد الحس التعاضدي والإحساس بالمساواة على منظومة الاعتماد المتبادلة ما بين الفقراء وبعضهم البعض. فيما يمثله هذا المجتمع من اعتراف وقبول بهم ، بقيمهم وأخلاقهم المقبولة داخل هذا السياق أو الحيز والمرفوضة بل والمدانة من المجتمعات أو السياقات الأخرى.

بالطبع فإن تلك المنظومة ليست بهذا الاتساق نتيجة -وهذه هي النقطة الثالثة- للتغيرات التي لحقت بالتركيبة الاجتماعية العشوائية بعد تغير أنماط التزوج والهجرة، حيث تزايد تمثيل البرجوازية الصغيرة المدينية، والبرجوازية التقليدية التجارية أو الخدمية مما أدى لتوطن مفاهيم ووعي وأنماط سلوكية وأنماط اجتماعية جديدة في المناطق العشوائية والتي أدت بدورها لتشابك أو تداخل أنماط الصراع والاحتجاج الاجتماعي .

على هذه الأرضية بدأت ظاهرة بزوغ وتوطن أيديولوجيات الاحتجاج الديني واستراتيجيات الصدام أو العنف الديني ، فالتغيرات التي لحقت بتشكيله الاجتماعية العشوائية تمثلت على المستوى الإمبريقي في تزايد الوزن النسبي للبرجوازية الصغيرة المدينية ، فئات ذات مستوى تعليمي أعلى بشكل ملحوظ ، لم تقطع كيفيا مع منظومة القيم والأعراف السائدة وذات إحساس أعلى بالحرمان النسبي ، وفي الوقت ذاته غير قادرة على الاندماج أو التوافق مع المنظومة العشوائية بأبعادها المختلفة ، كل هذه السمات جعلتها قابلة للاستلاب داخل أيديولوجيا العنف الجهادي وهو ما انعكس بالتالي على تغير أنماط العنف داخل المجتمعات العشوائية. من ناحية أخرى من الصحيح أن هذه الأيديولوجيا قد تراجعت بشكل حاد ، وربما يكفي ، منذ منتصف التسعينيات وبالتحديد منذ عام 1996 وحتى الآن ، ومن الصحيح أيضاً أن هناك مراجعة لرؤى ومفاهيم واستراتيجيات التنظيمات الجهادية ، وأن هناك ضغوطاً داخلية باتجاه التكيف والاندراج داخل المعادلة السياسية "الشرعية" والتي يمكن رصد أهم معالمها في المبادرات المتتالية من تلك الجماعات لوقف العنف.

إلا أن ذلك لا يعني المصادرة المستقبلية على إمكانية الصعود المجدد لتلك الظاهرة ، فهي ما زالت موجودة بالقوة وإن لم يكن بالفعل داخل هذه المجتمعات. الإشكالية الحقيقية -على الأقل في تصوري- ليست عقائدية بل



اجتماعية، وعلي هذا الأساس فإن لدى بعض التحفظات حول التناقضات العضوية ما بين الدين الشعبي والدين الوهابي .

فهذه الجماعات، بل الأيديولوجيا ذاتها لا تبرر وجودها على أساس مناهضة الدين "الشعبي" بالدين "الوهابي" باعتبار الأخير أفضل أو أصح "ثيولوجيا" ولكنها تخلق ركائزها عبر الدور التنموي الذي تمارسه في هذه المناطق ، إنها تشغل/تحتل الفراغ الناجم عن انسحاب الدولة وتؤسس شرعيتها على حطام شرعية الدولة أيضاً .

فالمستوصفات التي تقيمها هذه الجماعات وشبكات التكافل الاجتماعية التي تنشئها ، سواء فيما يتعلق بالزواج أو السكن أو العمل، كل ذلك يُكرّس وجودها وشرعيتها ، حتى عندما تنتقل هذه الجماعات لممارسة العنف ، فإنها تطرح عنفاً يرتبط بالقيم والثقافة وليس فكرة أو مفهوم الإيمان ، فالتعدي على الأفراح أو أندية الفيديو على سبيل المثال هي ممارسات ترتبط بالقيم والأعراف والأخلاق السائدة عوضاً عن الاعتقاد ، وهو ما قد يُفسّر بالتالي رضا أو على الأقل سلبية الأغلبية في مواجهة هذه الممارسات .

انطلاقاً من ذلك يجب التحفظ تجاه أية أحكام قطعية باستحالة عودة أو هيمنة أيديولوجيات وممارسات العنف الجهادي داخل هذه المجتمعات، فقدرتهم النسبية على ملء الفراغ، والخطاب القيمي والأخلاقي المطروح والذي يتقاطع مع وعي ومفاهيم الشرائع الجديدة التي توطنت داخل هذه المناطق، يؤسس لاحتمال العودة طوال الوقت.

### التوافق بين الهيئات في التقليل من العشوائيات :

إن الأجهزة الرسمية تقدر عدد المناطق العشوائية بحوالي 900 منطقة والجهاز المركزي للإحصاء يحصرها في 909 بينما تقدرها وزارة التنمية المحلية بنحو 897 أي حوالي 900 منطقة وهو رقم كبير للغاية.

وهذه المناطق يسكن فيها ، وفقاً للإحصاءات الرسمية حوالي 6 ملايين مواطن بما يعادل 60 % من سكان المدن تقريباً ، ورغم خطورة هذه الوضعية إلا أن هنالك بعداً غائباً، فالحديث دائماً ما يدور عن المدن وعشوائياتها .

والسؤال المهم : ماذا عن الريف ؟ لأن هناك عشوائيات الريف ، التحليل التقليدي يرد نشأة العشوائيات إلى الهجرة من القرى إلى المدن، حالياً هنالك غمط جديد للهجرة ، هجرة مرتدة من المدن إلى ، الريف إذن: هناك عشوائيات في الريف وتنتشر في حوالي 4000 منطقة.

ولعل حديثي في هذا المجال، في وزارة الإسكان أو في هيئة التخطيط العمراني هناك اهتمام شديد بالعشوائيات ، ونحن ننظر إليها على أنها أمر واقع ، طبيعي عندنا مناطق متدنية عمرانياً نسيجها العمراني متهاالك ، يكاد يكون محروماً من الخدمات إلى آخر ما نعلمه هذه هي العشوائيات ونحن نتعامل مع القضية من منظور سكني أولاً : ثم من منظور اجتماعي واقتصادي .

فمما سبق نصل إلى التأكيد على أن العشوائيات هي نتاج لعوامل اقتصادية واجتماعية وتشريعية وجغرافية ، تبلورت في النهاية في شكل بيئة متدنية عمرانياً نتيجة لذلك لا بد من التأكيد على ضرورة أن يكون العلاج للسبب وليس للعرض فإذا ما تعاملنا مع المشكلة عمرانياً نحن نعالج الأزمة وليس المشكلة، العرض وليس الظاهرة ، وفي هذه الحالة من يضمن أن البيئة لن تتدهور مرة أخرى ومن يضمن أنه لن توجد تشعبات وتكوينات لعشوائيات أخرى جديدة .

إذن : العلاج لا بد أن يكون اقتصادياً واجتماعياً ، أما خلق بيئة عمرانية جميلة وسعيدة فذلك لن يعدو مجرد علاج للأعراض، ما أعنيه أن درهم وقاية خير من قنطار علاج ، وعلى ذلك فلا بد أن ندرك أن الأمر يجب أن يشغل كل مواطن مصري وكل مسئول مصري على حد سواء ، الموضوع أكبر من أن نتخيله ، خاصة وأن علاجه يتكلف مئات المليارات.

فإذا ما أردنا أن نتعامل مع الواقع الحالي وأردنا التعامل معه بجدية فيجب توفير مئات المليارات وتلك مسألة تحتاج لوقت طويل ، ولا بد أن يتساند الجهد الشعبي والجهد الحكومي سوياً.

وتأكيداً على أن الدولة لم تنسحب في الحقيقة من مجال العشوائيات لأنها تعمل في هذا المجال وتكافح في التعامل مع قضية العشوائيات عمرانياً وتخطيطياً العشوائيات موجودة في كل مكان منذ مئات أو آلاف السنين، لكن المشكلة أنها تفاقمت وأصبحت مشكلة حقيقية منذ السبعينيات ، معاصرة لذلك الانفتاح الاقتصادي ، والتحول الكبير الذي يعيشه المجتمع ، إلا أن العشوائيات أصبحت خطراً يهدد المجتمع والدولة في المرحلة الأخيرة ، لذلك نحن نتحدث عنها بهذه الكثافة ، إلا أن ذلك لا يجب أن يدفعنا للقول بانسحاب الدولة ، الدولة لا تنسحب في الحقيقة، الدولة تعمل وجهات كثيرة تتعامل مع القضية ومنها وزارة الإسكان.

العشوائيات إذن تخلقت محلياً ولم نستطع حلها محلياً ، ومع ذلك إدراكاً لمسئوليات وزارة الإسكان فهناك استراتيجية تعمل من خلالها، على محاور للتعامل مع قضية العشوائيات أولى هذه المحاور هي التعامل مع العشوائيات القائمة بالفعل سواء كانت داخل المدينة أو على الهامش، حيث تقوم بتخطيط هذه العشوائيات.

الهيئة العامة للتخطيط العمراني هي جهاز الوزارة المسئول عن التخطيط العمراني في مصر، الهيئة معنية بالإشراف على تخطيط المدن والقرى في كل مصر وتوزيع العمران وإعادة توزيع السكان من الناحية Physical نحن نقوم

بتخطيط المدن ونقوم حالياً بتخطيط القرى، نخطط مدينة داخلها أو على أطرافها منطقة عشوائية.

التخطيط هو التعامل مع حيز الكتلة العمرانية الموجودة وإحداث توزيع فيها من خلال وسائل مختلفة في المستقبل القريب أو في المستقبل البعيد، هذه الخطة أو المخطط العام يشمل أي منطقة عشوائية، سواء داخل المدينة أو على أطرافها نحن نضع تخطيطاً لكل منطقة عشوائية في أي مدينة تقوم الدولة بإنشائها وبالفعل تم تخطيط حوالي 65 مدينة مصرية من إجمالي 213 مدينة وفق التعداد الأخير .

إذن : المشكلة "محلولة" أو قدم لها الحل في 65 مدينة، يتم هذا في إطار حيز عمراني ، الحيز العمراني هو المنطقة الذي تمتد إليه المدينة في المستقبل الأقرب أو الأبعد لكي تصبح قابلة للنمو العمراني في المستقبل ولكي يتم تحديد أو السيطرة على نشأة العشوائيات في المدن والقرى بشكل عام يتم تحديد الحيز العمراني ، وتحديد الحي بحيث لا يخرج أحد خارج هذا الحيز ويبنى أو يقيم منطقة عشوائية ثانية .

الحيز خطوة تخطيطية مهمة جداً ، وبالفعل تم تخطيط حيز عمراني لـ 132 مدينة مصرية وحوالي 4000 قرية مصرية، ليس ذلك فقط فهناك مشروعات يعلمها الجميع منها منشية ناصر هناك تخطيط لها ويجري على قدم وساق ، ويتم حالياً تسليم 8000 وحدة سكنية لأهالي منشية ناصر والدويقة ، أي : أن هناك خطة معينة وذلك رغم أن الوزارة لا تعمل على مستوى محلي ولا تهتم بالتفاصيل داخل المحليات ، ولكننا تبيننا هذا المشروع لكي نصيغ آلية معينة لتطبيقها في محافظات أخرى.

فالمسألة ليست مجرد إنفاق أو تخطيط أو نصيحة "لا دى حاجة عايزة شغل" الوزارة أخذت هذا كمشروع إرشادي وفعلاً يتم تنفيذه وهو يحقق نتائج باهرة جداً وذلك لأننا نريد أن نجد آليات التمويل ، آليات لكيفية استنهاض المجتمع المدني

توريط المجتمع بأفراده لكي يشترك معنا بوعي وهذا مشروع إرشادي ، وهناك مشروعات أخرى كثيرة منها (البمباية) في طنطا ، و(الناصرية) في أسوان ، المنيب والمنيرة وشبرا الخيمة هناك مشروعات كثيرة ، في مناطق عشوائية محددة وتُعمل مشروعات إرشادية أخرى.

هذا هو المحور الأول وجوهره السيطرة أو الحد من خطورة العشوائيات الموجودة بالفعل ، ومنع تولد عشوائيات جديدة أخرى ، هنالك أمران يحددان استراتيجيتنا السيطرة على العشوائيات والسيطرة أيضاً على مصادر توليد العشوائيات ، هناك أيضاً استراتيجية واضحة وسياسة واضحة بالنسبة لوزارة الإسكان والهيئة العامة للتخطيط العمراني وهى أن هناك خللاً حالياً في مصر، ليس حالياً، بل موروث وهو التكدر في الوادي والدلتا وأنه لو لم يتم السيطرة على التكدر السكاني والعمراني في الوادي والدلتا على مدى 30 سنة قادمة ستحدث كارثة أركيولوجية، مما يترتب عليها انقطاع وفقاً لتصور مستر براون ، انقطاع في حياة البشر نفسها.

إذن : يجب إعادة توزيع السكان في مصر على كامل مساحة مصر أو على جزء كبير منها، من هنا أتت فكرة المجتمعات الجديدة من عام 78 إلى اليوم و إلى عام 2017 لدينا رؤية واضحة أن هناك 18 مدينة جديدة موجودة وهناك أربع مدن جديدة قيد الإنشاء، وهناك 42 تجمعاً عمرانياً جديداً سيتم إنشاؤها حسب الخطة حتى عام 2017 .

نعني بالخطة تلك الوثيقة التي تنظم العمران في مصر في المستقبل والتي نسميها نحن خريطة التنمية العمرانية في مصر حتى عام 2017 وهو جهد مشكور قام به بعض الخبراء داخل الهيئة وخارجها، وأهم ما في هذه الوثيقة أنها أصبحت رؤية واضحة، فهناك 42 تجمعاً عمرانياً سوف يتم إنشاؤه، بالإضافة إلى 18 مدينة .

والمخطط لهذه المدن أن تستوعب 14 مليون مواطن، أو بمعنى أصح كل الزيادة السكانية تقريباً أو أقل قليلاً وحتى عام 2017 الأمر الذي يعني توسع المعمور المصري من 5 % إلى 25 % أي 5 أمثال الوضع الحالي ، وهي مسألة ليست سهلة على الإطلاق ، فعندما كنا "نزحزح" العمران إلى خارج هوامش الدلتا 1% كان ذلك يستلزم عملاً وجهداً هائلاً . هذه أهداف طموحة .

هذه المدن سوف تتمكن من استيعاب العشوائيات المحتملة في المستقبل وتمنع تولد العشوائيات الجديدة وذلك عبر منظومة متكاملة بضوابط واضحة عن طريق إتاحة الأرض التي تشتمل على كافة المرافق بأسعار رمزية، ورغم كل ما يقال عن الموضوع إلا أن هذا هو الواقع حالياً، الأرض رخيصة السعر والناس التي تذهب إلى هناك تجد فرص عمل في آلاف المصانع "الشغالة" الآن ومستقبلاً يعني سياسات مختلفة ، تنهياً المدن الجديدة لاستقبال العشوائيات الجديدة في المستقبل.

\*ملحوظة:هناك الكثير من المدن المقامة بالفعل، إلا أنها فارغة من السكان

إن نسبة الإشغال في المدن لا نستطيع تحديد حجمها بدقة، فهناك تصورات متناقضة عنها، فالبعض ممن لا تعجبهم هذه المشروعات يقول إنها 5% والبعض يقول إنها 90% لكن ما أريد قوله هو أن هناك حقيقة يجب أن نقبلها ، وهي أن هناك مدناً أو تجمعات عمرانية جديدة، وهذه بمفردها إنجاز وإذا لم يتم إشغالها بالكامل حتى الآن فسوف يحدث ذلك في المستقبل القريب ، فعندما تذهب لمدينة 6 أكتوبر أو العاشر من رمضان سوف تجد بيئة صحية وجميلة ، وهو الشيء الذي يطمع فيه اليوم سكان الزمالك، فهم ينتقلون لمدينة 6 أكتوبر، ومع ذلك فلا يمكن أن نتوصل لنسبة إشغال كامل.

المدن الجديدة مثل الوليد البشرى، المدينة الجديدة كانت عبارة عن منطقة صحراوية مفتوحة، انتقل إليها رئيس الجهاز وأرسل اثنين من مساعديه "عملوا خص وقعدوا" لما بقت مدينة ، إذن المدينة الجديدة ولید يحتاج لرعاية خصوصاً في مراحل طفولته الجديدة، توضع خطط طموحة وقد تتطلب وقتاً كثيراً ، أكثر مما نتوقع، بالضبط مثل الولد الصغير "يعني ما نستعجلش الأمور" هناك الكثير من المدن الجديدة والله الحمد هناك مكان لكل المواطنين وخصوصاً في المدن المصرية.

وفي دراسة خاصة بالإسكان اتضح من هذه الدراسة أن المدن الجديدة تسمح بإيجاد مسكن لكل مواطن في المدن المصرية جميعاً حتى 2017 بلا استثناء وهو ما يعني أن كل الزيادة السكانية في المدن المصرية سوف تجد لها مكاناً في المدن الجديدة ، ليس ذلك فقط بل إن قرابة 35% من احتياجات الإسكان الريفي سوف يتم تدبيره في المجتمعات الجديدة التى نسميها المجتمعات العمرانية أو المدن الجديدة .

وهناك قطاعات معينة مثال قطاعات الشباب سوف تجد مساكن هناك من خلال مشروعات لرجال الأعمال وجهات مختلفة مثل مشروع إسكان الشباب ومشروع إسكان المستقبل.

## تشريعات وقوانين لمنع العشوائيات :

هذا هو المحور الثاني وهو يسعى لمنع تولد عشوائيات جديدة، ثم بعد ذلك تخطيط القرى وتحديد حيز القرى لمنع تيارات الهجرة من الحضر للريف من منابعها وهذا الكلام كله يجرى على مستويات مختلفة ، تخطيط قومي تخطيط إقليمي تخطيط على مستوى المحافظات وعلى مستوى القرى والمدن ريف وحضر هذا موضوع نتابعه برؤية واضحة.

أما في إطار القانون والتشريع، فإذا كانت السياسات والتشريعات هي أحد أهم أسباب تولد العشوائيات فهناك أفكار بالنسبة لقضية العشوائيات، رؤيتنا تتلخص في ضرورة توفير الأرض لكل الناس بسعر رمزي، لابد من المساعدة على توفير مسكن رخيص السعر إيجاراً أو تملكاً بما يناسب المجتمع ويتناسب مع دخل الأسرة المصرية "مش يبقى واحد بيقبض 500 جنيه ونقوله 400 جنيه تكاليف مسكن شهرياً"" فهناك ضوابط لهذا، هناك تشريعات مالية وإدارية وتخطيطية أيضاً في هذا الوقت نقوم بصياغة القانون الموحد للتخطيط العمراني.

أيضاً هناك أكثر من قانون يمس البيئة العمرانية والتخطيط العمراني ، هناك مئات التشريعات والقوانين يتم ضمها في قانون واحد لكي لا نتخبط ولكي يسهل تطبيقها ، هناك قروض وتيسيرات موجودة ، وهناك أيضاً الرهن العقاري الذي تكلم عنه البعض، موجود ويتم بحثه كنوع من السياسات إذن وزارة الإسكان وفي الهيئة العامة للتخطيط العمراني رؤية واضحة لكيفية التعامل واستراتيجيات أستطيع أن أقول أنها معلنه .



### عدم الاستفادة من الخبرات المتاحة في علم التخطيط العمراني :

في البداية لابد من إدراك أن علم التخطيط العمراني قد بدأ تدريسه في كليات الهندسة شعبة فن العمارة ، وسرعان ما اكتشف المهندس المعماري "توني كلير" أهمية هذا العلم باعتباره الوحيد الذي يتعهد "البنّي آدم" من المهّد إلى اللحد" هو الذي يصمم غرفة العمليات ، هو الذي يضع لبنات المهّد وحجارة اللحد . بعد ذلك اكتشف المخطط المعماري أنه ليس من المفروض أن يكون هو وحده المخطط فأنشئت كلية التخطيط العمراني ، ولكن سرعان ما اكتشف المخطط أنه يعمل في جوانب اقتصادية هامة لابد من مراعاتها .

لذلك عندما أنشئت هيئة التخطيط العمراني كان لها جناحان، جناح هندسي ينظر في الأمور الهندسية، وجناح فني ينظر في الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية، باختصار علم اجتماع السكان.

لذلك فإن هيئة التخطيط العمراني وأية جهة تعمل في التخطيط العمراني لا تستطيع أن تباشر عملها كمنتج ، هي تنسق العملية لأن خبير التخطيط العمراني تنحصر مهمته الفعلية في إدارة العملية التخطيطية ، إنها أدواته ناس أكثر تخصصاً وفي كافة المجالات الاقتصادية والاجتماعية والنفسية وغيرها، إلا أنه يدير العمل باعتبار أن تخصصه الأساسي هو الإدارة ، التخطيط العمراني ليس عملاً هندسياً صرفاً .

فإذا كان المهندس المدني يقيم كوبري على سبيل المثال فإن المخطط العمراني ينتج شيئاً آخر ، ينتج الإنسان ، ينشئ خريطة لاجتماع السكان، يتعامل مع واقع فالعمل إذن هو عمل فكري وليس عملاً يدوياً وهو منتج الجميع، إلا أن هناك شخصاً واحداً يقوم على تنظيمه ، أود أن أكون قد أجبت عن هذه الجزئية.

## صعوبة تمكين الإنسان :

فيما يتعلق بالعشوائيات، في اعتقادي أن هنالك مشكلة تتمثل باختصار في صعوبة تمكين الإنسان ، توفير حياة كريمة له ، دخله قليل وبالتالي لا يستطيع أن يوفر له ولأسرته مكاناً ملائماً ، في المقابل لا يوجد أحد على استعداد لخدمته لأنه لن يحصل على مقابل لخدماته، هناك انتقادات مفادها أنه لم يسبق في التخطيط للعشوائيات.

في هذا الصدد أود أن أشير إلى أنه في عام 1978 تم إعداد مشروع لتنمية منطقة منشية ناصر وقد حصل المشروع على منحة مقدارها 2/1 مليون دولار واستجلب لها خبير في التخطيط العمراني من الخارج ، واشترك معه أفضل أقطاب التخطيط في مصر ، إلا أن المشروع لم ير النور وتفاقت المشاكل في المنطقة إلى أن تم الانتباه لها والتدخل فيها مؤخراً.

هناك العديد من الأمثلة المشابهة منطقة مجدوب بجنوب أسيوط، لن تصدقوا تم تخطيطها وأنشئت ثم هُدمت بعد ذلك، إرادة الدولة المفروض أن تتفق مع إرادة المختصين والفنيين، وقد شكا هؤلاء كثيراً من العشوائيات.

لقد فاضت العشوائيات عن الحد ، إلا أن البُعد الهندسي أو المعماري لن يستطع وحده حلّ المشكلة ، فهناك أبعاد اقتصادية واجتماعية متعددة والمسألة كما أشرت في البداية هي مسألة تمكين المواطن المصري ، فإذا ما رفعنا قيمة الإنتاج سنزيد من دخل المواطن وعندها سيجد من يخدمه بالتبعية.

هناك العديد من الوحدات السكنية في المدن الجديدة مثل العاشر من رمضان والعبور ولا تجد مَنْ يسكنها، في اعتقادي أن الدولة يجب أن تراجع استثماراتها في القطاع العقاري باتجاه الإسكان الشعبي، فهذا هو الشرط الأولي للقضاء على مشكلة العشوائيات، لقد بدأت الدولة في الخمسينيات في بناء المساكن الشعبية ، ومنذ الستينيات تناقصت الوحدات الشعبية حتى وصلنا للتسعينيات مما أدى لتفاقم المشكلة.

### العشوائيات وانعكاساتها الأمنية

ارتبطت معظم المناطق العشوائية بانتشار الجريمة باعتبارها بيئة مناسبة لتفريخ الإجرام والمجرمين ومركز تصدير للجريمة بمختلف أنواعها. وقد أشارت بعض الدراسات إلى أن عناصر الجماعات المتطرفة في جمهورية مصر العربية كانت تحرص على الاحتماء بالأحياء العشوائية داخل القاهرة الكبرى بعد ارتكابهم لعمليات تخريبية. كما أن أفراد عصابات تهريب المخدرات في كولومبيا كانت تلجأ للاختباء في المستوطنات المحيطة بمدينة (ليما) .

وتؤكد الدراسة أن المناطق العشوائية تزداد فيها معدلات الجريمة وتنتشر فيها الأنشطة الاقتصادية الهامشية وغير المشروعة. وتصبح السيطرة على بعض المناطق العشوائية لعدم توفر أجهزة الضبط الاجتماعي ومركز بعض الجماعات الرافضة والمتطرفة.

وأصبحت بعض المناطق العشوائية مكاناً للخارجين على القانون والمتاجرين بالمخدرات، ونقطة جذب للكثيرين من أصحاب حالات الفساد الاجتماعي ومصادر إزعاج للأحياء المجاورة للعشوائيات (البطران، 1995).

وبدأت العشوائيات تشكل مشكلة أمنية تحول دون التحكم فيها أو ضبطها من قبل الأجهزة الأمنية ، وقد تتحول تلك المناطق إلى جيوب للعنف والتطرف والإرهاب. وتتصف معظم المناطق العشوائية بعدم وجود منافذ لبعض المواقع، مما يؤدي إلى صعوبة الوصول إليها في الحالات الضرورية كالإسعاف أو الإنقاذ في حالات الحريق أو مطاردة المجرمين، مما يجعل المناطق العشوائية بؤراً خطيرة لتفريخ الإجرام والمجرمين لبعدها عن الأجهزة الأمنية ولصعوبة الوصول إليها. كما يلاحظ أن الخدمات الأمنية لا تتوفر في معظم المناطق العشوائية بالصورة التي تتفق مع خطورة تلك الأماكن.

وفي بعض العشوائيات قد يكون الأمن معدوماً باعتبارها خارج المدينة ، هذا بالإضافة إلى عدم الاعتراف بها من قِبل الإدارات المحلية وإدارات البلديات. وقد يرتكب بعض سكان العشوائيات جرائم داخل المدينة كالسرقة وترويج المخدرات وغيرها ثم يعودون إلى مخابئهم في المناطق العشوائية.

وقد كشفت دراسة ( فعالية الإجراءات الأمنية الوقائية من الجريمة في المناطق العشوائية) عن أن الأجهزة الأمنية لا تغطي المناطق العشوائية بالعدد الكافي من الدوريات الأمنية. ومن الواضح أن مستوى التواجد الأمني بالمناطق العشوائية ضعيف في معظم أوقات اليوم. ويلاحظ ضعف إجراءات الوقاية من الجرائم الأخلاقية بالعشوائيات (الاحمري، 1423هـ) .

وتجدر الإشارة إلى أن تدني المستوى الأمني بالمناطق العشوائية يعود إلى عدم وجود خطة أمنية فعالة لمكافحة الجريمة في تلك المناطق. ويجب أن تتضمن الخطط الأمنية إجراءات وقائية فعالة تسبقها حملات إعلامية وأخرى للتوعية من خلال وسائل الاتصال المتعددة ، مع توفير الإمكانيات المادية والبشرية اللازمة لتنفيذ الخطط الأمنية لمكافحة الجريمة في المناطق العشوائية.

كشفت الدراسة الحالية عن أن معظم العواصم العربية قد شهدت نمواً سكانياً مضطرباً مما جعلها مدناً مهيمنة كالقاهرة والدار البيضاء والرياض والخرطوم وغيرها، حيث تتراوح نسبة سكان كل من تلك العواصم بين 20% و 25% من إجمالي سكان القطر .

كما أوضحت الدراسة الحالية أن هذا النمو الحضري المتسارع قد أدى إلى ظهور العديد من المناطق العشوائية على أطراف المدن العربية وبداخلها. وتفتقر معظم تلك العشوائيات للخدمات الضرورية ، وأصبحت بعضها أوكاراً للجريمة وبؤراً خطيرة لتفريخ الإجرام والمجرمين.

كما أوضحت الدراسة الحالية أن وجود المناطق العشوائية لا يقتصر فقط على الدول العربية التي تعاني من مشكلات اقتصادية ، وإنما ظهرت أيضاً في بعض الدول العربية الغنية، ولكن بصورة أقل خطورة إذا ما قُورنت بوضع العشوائيات في الدول العربية الأخرى.

● والأمل معقود على أن تتصدى الدراسات الميدانية بالبحث والتحليل للمشكلات الأمنية المصاحبة لظهور المناطق العشوائية التي أفرزها النمو الحضري المتسارع في العديد من الدول العربية. إن مثل تلك الدراسات ستساعد في وضع الاستراتيجيات اللازمة لإعادة تخطيط وتطوير بعض المناطق العشوائية وإزالة البعض الآخر، الذي يشكل خطراً على أمن المجتمع واستقراره .

أما فيما يتعلق بمسألة الأمن القومي ، فلا أتحدث عن الأمن القومي بمعنى أمن الدولة لأن مفهومي مختلف كلية ، وهذا ما يشكل مدخلي للتعليق ، هناك ما يسمى بالأمن البشرى وهو يعتبر مكوناً أساسياً حالياً في إعادة النظر لمفهوم الأمن القومي نفسه ومسألة العشوائيات هنا أو المناطق غير المخططة أنا أبحث فيه عن أمن الناس أنفسهم داخل المناطق العشوائيات ، وكيف يمكن أن يتحول انعدام الأمن لدى هؤلاء إلى مهدد لما يعرف بالأمن القومي أو الأمن في المجتمع بشكل عام.

وبالتالي هناك مسألة في غاية الأهمية في النظر لمفهوم الأمن البشرى ألا وهى ما يسمى الأمن الجنائي أو أمن الفرد داخل العشوائيات ، فنحن هنا نتكلم عن العنف الموجّه من المناطق العشوائية إلى غيرها من المناطق ، المشكلة أن هناك عنف آخر داخل المناطق العشوائية ، عنفاً موجه للذات، وهذه هي الحقيقة.

فإذا كان هناك في الشراية من يتاجر في المخدرات ، فإن هناك أيضاً من تُغتصب رغم انقائها في هذه المناطق وهناك أسر تتعرض لإهدار أمنها من جانب الأسر الأخرى الموجودة في هذه المناطق أو بعض البلطجية الموجودين والذين يتم توظيفهم من قِبل العديد من الأجهزة في خدمة تأمين هذه المناطق .

بالتالي لا بد أن نهتم بالعنف الموجّه للأفراد أو ضد بعض الأسر داخل المناطق العشوائيات لأن هذا موجود ؛ كذلك فليس كل سكان العشوائيات مجرمين أو منحرفين، هناك المغلوبون على أمرهم، أي أنهم بمعنى أصح يتعرضون للعنف من جانب الجماعات الأخرى ، وهناك أيضاً من يحاولون التعبير عن عنفهم ضد المجتمع بشكل غير مباشر ، وهذا يتمثل في الأساس في انتشار ظاهرة المخدرات سواء بالتعاطي أو الاتجار ، فقد تحاورت مع بعض تجار المخدرات في مناطق العشوائيات وهم يعتبرون أنفسهم "بيخلصوا حقهم" من المجتمع عن طريق الاتجار لأبناء الطبقات الغنية.

فهناك بعض المتعافين من الإدمان كانوا يذهبون للشراء من المناطق العشوائية ، وقد شرحوا الأسلوب الذي كانوا يُعاملون به ، حيث كان تاجر المخدرات يتركهم يجرون ورائه من بيت لبيت كنوع من الانتقام منهم وبالتالي هذه ظاهرة في غاية الأهمية وتوضح كيف يمكن للمناطق العشوائية أن تهدد أمن المجتمع كله ليس عن طريق العنف فقط ، ولكن عن طريق ظواهر أخرى مرتبطة بها.

من ناحية أخرى أود الإشارة إلى أن أحد المغذيات للعنف في العشوائيات هي ما يسمى بمشكلة الجيل الثاني للعشوائيات، لأنه إذا كنا نتحدث عن منطقة مثل زينهم فنحن نتحدث عن متوسط إقامة 18 سنة، فمن خلال حصر شامل قام به المركز القومي للبحوث الجنائية والاجتماعية تم اكتشاف أن هناك بعض الأسر تقيم في المنطقة منذ ثلاثين عاماً وبعضها منذ خمس سنوات والبعض الآخر "لسه جاي امبارح" لأنه علم أن المنطقة ستزال.

هذا الجيل يعيش حالة من التوتر غالباً ما تدفعه إلى العنف. هناك ضرورة لمعرفة هذا المجتمع من الداخل وفهم احتياجاته وما يمكن أن تقدمه الدولة ، علاوة على ذلك فمن الضروري التفرقة في التعامل مع المناطق العشوائية ، "مش كله لازم يبقى بالهدم" .

فتجربة بنك التعمير الألماني والمشروع الخاص به تقوم على فكرة بسيطة جداً هناك منطقة واحدة لكن ليست جميعها بحاجة للإزالة ، بعضها يمكن تطويره ويظل كما هو، وبعضها يمكن استغلال مناطق الفراغ المحيطة به للتوسع والبناء فيها لتوفير السكن الملائم للناس.

### التخطيط الاجتماعي والتخطيط العمراني :

لعله من قبيل المفارقة أن يكون تاريخ المصريين حافلاً بمهارات وخبرات التخطيط العمراني في الوقت ذاته الذي يفتقدها واقعنا، لقد خطط المعماريون المصريون مناطق عديدة في المنطقة العربية كلها وليس في مصر فقط ، ولكن للأسف يبدو أن مصر آخر دولة تتم الاستعانة فيها بهذه الخبرات أو الاهتمام بها بشكل كافٍ .

بدليل أننا حالياً نخطط مدناً ونحاول متابعة طرق التخطيط وتقريباً كل منطقة الجيزة وشبرا الخيمة وحلوان تحوي العديد من المشاكل التخطيطية ، هذه المشاكل تعكس افتقاد أو انقصام العلاقة ما بين التخطيط الاجتماعي والتخطيط العمراني ، فقرار التخطيط المنطلق من المهندس المسئول لم يُراعِ البعد الاجتماعي ، أو ربما كان هناك تخطيط اجتماعي ثم تم تغيير مفاعىء في الآراء لأن بها مراكز متعددة بل ومتضاربة أحياناً ، فهي تقوم بنقل الناس من الباطنية لدار السلام لتصبح دار السلام مركزاً رئيسياً لتجارة المخدرات نتيجة لندرة فرص عمل، ثم تقوم بعد ذلك بنقل الحرفيين إلى هناك مما يؤدي لفقدانهم لفرص العمل والكسب.

إن هذه الأمثلة تفصح عن خلل جوهري، لقد أقامت الدولة مجتمعاً "متخطط كويس" لكنه في الحقيقة وفي تصوري عشوائي للغاية، وذلك بالإضافة إلى العيوب الهندسية، فهناك على سبيل المثال بمدينة السلام عمارات مدفونة في الرمل في التنفيذ أيضاً هناك مشاكل ثانوية، مثال أن تحصل على هذه المشروعات

شركات مقاولات "أجارك الله" ، وكنتيجة لذلك ولسبب أو لآخر تنهار العمارات أو تكون مهددة بالسقوط كما حدث في القطامية.

على ما أعتقد فإن هذه المشاكل تمثل هماً مشتركاً يربط ما بين الجميع وفي مقدمتهم الهيئات المسؤولة عن جهود التخطيط العمراني ، الذي أطالب بتوسيعه بحيث يصبح أشمل ، ويشمل التخطيط الاجتماعي أيضاً إلى جانب التخطيط العمراني كي لا تتكاثر لدينا الظواهر العمرانية السلبية مثال ظاهرة المدن العمرانية الجديدة ، أو مدن الأشباح والتي تعاني من تدني نسب الإشغال كنتيجة لندرة فرص العمل.

وهو الأمر الذي يوضح غياب التخطيط الاقتصادي الموازي، فالمصانع المتواجدة هناك غير مؤهلة لفرص العمل، فالمتوسط 30 عاملاً لكل مصنع حسب الإحصاءات الرسمية، فضلاً عن أنها في كثير من الأحيان ما تكون مصانع شكلية.

أما فيما يتعلق بموضوعنا وهو العشوائيات والعنف الاجتماعي، هنالك في الحقيقة كلام كثير حول تعريف الكلمتين ، العشوائيات والعنف الاجتماعي هناك مشاكل ضخمة فيما يتعلق بتعريف العشوائيات ، وقد كنت أطمح أن يكون هناك تعريف له علاقة بالعنف، لقد تبنت الورشة تعريفاً للعشوائيات يربطها عضواً بالعنف، فما الذي يجمع بين الطرفين ؟

هناك سمات واضحة للعنف الاجتماعي في العشوائيات تنحصر في العنف الارتزاعي والبلطجة والعنف تجاه الذات وتجاه الآخر، هناك شكوك ضخمة في أن العنف السياسي له علاقة حقيقية بالعشوائيات، هناك ترابط ما بين الطرفين فالاثنتان لهما علاقة بالتمرد على الدولة بشكل عام، فكل الهارين يذهبون لهذه المناطق ، لكن هل يجعل ذلك العشوائيات ظاهرة حاضنة للعنف السياسي ؟



سواء السكن في العشوائيات أو ظاهرة العنف لهم علاقة بالاحتقان الاجتماعي إذا جازت التسمية، لكن ليس من الضروري أن تكون العشوائيات سبباً للعنف. في اعتقادي الشخصي أن العشوائيات تؤدي إلى تشوه نفسي تؤدي إلى إحساس عالٍ بالدونية، لكن ليس من الضروري أن تؤدي إلى ميل أكثر للعنف، الكلام حتى على قابلية الظاهرة للتوسع في رأيي مبني على أسس تستدعي التحفظ، مثل الكلام عن الوعي بموقفهم والذي يدفعهم لاتخاذ موقف انتقامي من المجتمع، لو أن لديهم مثل هذا الوعي لكانت الأوضاع تغيرت.

لا أعتقد أن هنالك وعياً انتقامياً تجاه الآخر أو رغبة في العقاب الجماعي من العشوائيات تجاه المركز لأن التداخل بين العشوائيات وغير العشوائيات صعب جداً، لأن كل سكن مصر يمكن توصيفه بالعشوائيات بمعنى أو بآخر، ميدان التحرير ذاته قال مهندس ذات مرة إنه ميدان عشوائي لم تُراعَ فيه أصول التخطيط المبني الوحيد فيه الذي يتسق مع تصميم الميدان هو مجمع التحرير لأنه الوحيد الدائري مثل ميدان التحرير .

إنني أفكر بجدية في أثرياء أمس وأثرياء اليوم، أثرياء أمس أنجزوا أشياء إيجابية، لأنهم كانوا أرسقراطية " شعبانين أصلاً"، الأميرة فاطمة تبني الجامعة الأمير يوسف كمال ينشئ الفنون الجميلة، ويرسل بعثات، وطلعت حرب في بداية إنشاء بنك مصر يرسل بعثات للسينما والمسرح، أنجزوا أشياء كثيرة .

لكن أثرياءنا الحاليين يعملون من الأساس في أعمال غير مشروعة، يتاجرون في المخدرات والسلاح فلا يمكن أن يتبنوا مشروعاً جدياً، فقط الممارسات المظهرية موائد الرحمن لكي تكتب الناس عنه وتدعو له، هؤلاء الأثرياء الجدد من محدثي النعمة لن يفعلوا شيئاً ذا قيمة، لذلك لا بد من التأكيد على دور الدولة.

النقطة الأخرى التي أثيرها هي التأكيد على ضرورة دراسة العنف الاجتماعي وذلك أمر صعب للغاية، خاصة في التجمعات العشوائية، لأن هذا السلوك يتسم بالخفاء ومن الصعب أن يفصح عنه لباحث متعجل ، فالمسألة صعبة ولكن لا بد من محاولات رصينة مش محاولات هوجاء .

بعض التوصيات :

- إنشاء مشاريع إسكان لذوي الدخل المحدود داخل المدن وتشجيع المشاريع الإسكانية التعاونية.
- توفير الأراضي الصالحة للسكن لفئة ذوي الدخل المحدود.
- تفعيل دور الرقابة البلدية في التشريعات الخاصة ، بالبناء بحيث تكون أكثر فعالية للحد من الاستمرار في إنشاء المباني المخالفة لأحكام التنظيم ومتطلبات تراخيص .
- ضرورة تنفيذ التشريعات القانونية الخاصة بحماية الأراضي من التعديات العشوائية الجديدة.
- قيام جهاز مقتدر لمعالجة ومكافحة السكن العشوائي .
- تشجيع الهجرة العكسية بخلق مشروعات تنموية جاذبة في الأقاليم والمناطق الريفية.

## الخاتمة

### أولاً: المفاهيم السوسولوجية المستخدمة:

فنتيجة للانتشار والتوسع السرطاني للمناطق العشوائية والتي يتراوح عددها ما بين 1000-1200 منطقة على امتداد الخارطة المصرية ، بعضها على هوامش المدن والمراكز الحضرية وبعضها في أعماقها ، وتباينها من حيث ظرف وتاريخ النشأة ، فهل هي تلك المناطق والتجمعات التي نشأت على أطراف المدن دوماً أي تخطيط عمراني ، أم أنها المناطق التي تدهورت عمرانيا ، هل هي المناطق التي تفتقد منذ البدء للخدمات والمرافق الأساسية ، أم المناطق التي تعاني من تدهور البنى والخدمات الأساسية ؟ هل هي المناطق التي تمثل تجمعات لموجات النزوح من الأرياف، أم تلك التي تمثل تجمعات لموجات الهجرة المضادة (من المدن والمراكز الحضرية كنتيجة للزيادة السكانية والمضاربات العقارية)، هل يعد وجود/غياب آليات الضبط الرسمية عنصراً محدداً لتوصيف تجمع ما بالمنطقة العشوائية ، هل تمثل التشكيلة الاجتماعية ، بمعنى الشرائح والفئات الاجتماعية ، المستوى التعليمي ، المهن والحرف السائدة، محدداً أو عنصراً أساسياً في تحديد المناطق العشوائية.

ما زالت هناك صعوبات تواجه ضبط مفهوم العشوائيات علمياً ، وهي الصعوبات التي تعرقل بالتالي إمكانية وضع استراتيجية واضحة للتعامل مع هذه المناطق. من ناحية أخرى أثار مفهوم العنف بشقيه (العنف الاجتماعي-العنف السياسي) جدلاً لا يقل عن ذلك الذي أثاره مفهوم العشوائيات، سواء فيما يتعلق بأنماطه (عنف ارتزاقى-عنف ثأري انتقامى-عنف أيديولوجي) أو من حيث اتجاهه وغايته (عنف موجّه للخارج-عنف موجّه للداخل)

وفي هذا السياق جابهت محاولة تفسير تباين أنماط العنف ارتكازاً على تباين/تغير الركائز الاجتماعية (الفئات والشرائح الاجتماعية القاطنة في العشوائيات) تحفظات عدة، فعلي الرغم من اعتراف الجميع بدلالة الإحصاءات الأولية المتوافرة والتي تؤثر لوجود علاقة عضوية ما بين العنف بشقيه (الاجتماعي "البلطجة"/ السياسي "العنف الديني") إلا أن انتشار ممارسات العنف والاحتجاج الديني على اتساع الخارطة المصرية كان يصادر على إمكانية ربطها جدليا بالعشوائيات ، وفي ذات الوقت يطرح ميكانيزمات تفسيرية أخرى من قبيل الفقر والحرمان النسبي وغيرها.

#### ثانياً: العشوائيات وإشكالية التنمية:

إن ظاهرة العشوائيات باعتبارها نتاجاً لتشوهات النمو الرأسمالي المتأخر تبلور اتجاه مغاير ، تنموي يربط ما بين العشوائيات والنمو بالمعني الاقتصادي . عكس هذا التقاطع وجود منظورين مختلفين للتعامل مع الظاهرة العشوائية ، أحدهما يري العشوائيات إفرازاً طبيعياً للتنمية الرأسمالية المتأخرة التي تؤدي لخلق وتكريس فقر وتخلف الهوامش والأخرى تطويرية ترى العشوائيات ناتجاً عرضياً أو مرحلياً في مسيرة التطور الاقتصادي.

### ثالثاً : المدخل السيكولوجي والسمات النفسية للعشوائيات :

ففي سياق محاولة صياغة علاقة أولية تفسر ارتباط العنف بالعشوائيات يظهر تصور جدليّ حول تأثيرات البيئة المحيطة على التكوين النفسي للقاطنين بالمناطق العشوائية . انطلقت هذه الأطروحة من تعريف واسع نسبياً للبيئة ، وإما يتعداها إلى مدى وطبيعة العلاقة بين التجمعات العشوائية والمدن والعواصم الإقليمية أو بين الأطراف والمركز ، تاريخ نشأة هذه العشوائيات ، المهن والحرف السائدة الثقافة المهيمنة وغيرها .

على أساس أن هذه الأبعاد كافة تؤدي لتبلور ما يسمى -علي الأقل بالمعنى النسبي- الخصوصية السيكولوجية للعشوائيات وتولد أمطاً متميزة من العنف فترات النبذ والتهميش والتدخل الأمني المتواتر وانخراط شطر هام من سكان العشوائيات في مهن محتقرة اجتماعياً ومدانة أخلاقياً يؤدي لحفز طاقة العنف ورغبات الانتقام باتجاه المركز الذي يخلق هذه الفئات ويهمشها في الوقت ذاته .

كما أنه يؤدي على الصعيد الآخر لبلورة منظومة ثقافية وقيمية مغايرة ذات طابع براجماتي للتعاش مع نبذ وتهميش الخارج وتبرير ما تمثله أمط الارتزاق مثال الدعارة والسرقعة والاتجار في المخدرات وغيرها من مظاهر تحدي منظومة القيم السائدة، نتيجة لذلك يصبح المكان قيمة رمزية تفوق بما لا يقاس حدود الحيز المادي، فهو نطاق الاعتراف والقبول كما أنه نطاق الإحساس بالأمان.

أثارت هذه الأطروحة العديد من الاعتراضات، تبلورت في معظمها في انتقادين تمثّل أولهما في واقع أن هذه الفئات لم تقطع صلتها كلية بالخارج ، بمعنى السياق الاجتماعي المحيط بها ، فهي تنتمي له بمستوى من المستويات ، كما أنها تستمر في التفاعل معه بأشكال وأمط مختلفة وبالتالي فهي تحمل سماته الجوهرية وأنساقه الثقافية والنفسية العامة.

أما الانتقاد الثاني فقد تمثل في خلل التعميم نظراً لعدم التجانس الاجتماعي الذي يسم هذه المناطق أو التجمعات .

من ناحية أخرى أشار التيار المعارض لأطروحة الخصوصية السيكولوجية إلى نقطتين هامتين ، تمثلت أولاهما في تأثير الخصائص الأركيولوجية للمكان على سمات وصفات السكان "نحن بنى المكان والمكان بيننا" فيما تمثلت الثانية في افتقاد سكان العشوائيات للحيز الشخصي Personnel Space بما يعنيه من افتقاد للخصوصية وانكشاف كامل للعلاقات والممارسات الحميمة.

عكست هذه النقاط وجود قدر هام من الاتفاق ما بين وجهتي النظر، فالتسليم بدور المكان في صياغة الخصائص النفسية والشخصية للسكان والإشكالية التي تتمثل في افتقاد قاطني المناطق العشوائية للحيز الشخصي تؤثر بدرجة ما - على الأقل- لتمييز أو خصوصية نسبية للقاطنين في هذه الأماكن، خصوصية وليدة التفاعل الجدلي ما بين الاحتياجات والإمكانات ، ما بين شروط الاعتراف والقبول المجتمعي وضرورات الحياة، ما بين الأنساق الثقافية والقيمية السائدة وما تمثله أنماط الارتزاق من نقض لها.

رابعاً: إشكالية المجتمع المدني: هناك اختلافات جذرية فيما يتعلق بالموقف من مؤسسات المجتمع المدني، فعاليتها وقدرتها على المساهمة في ملء الفراغ الناجم عن انسحاب الدولة.

## المراجع والمصادر

- البداينة، ذياب موسى 1998، التحضر والجريمة في المجتمع العربي، ندوة المدينة والسكن العشوائي ، حمرية مكناس ، 20 - 22 إبريل 1998م.
- البطران، عائدة 1995، الإسكان العشوائي في مصر، الحلول والبدائل المقترحة لحل مشكلة أمن العشوائيات، ورقة بحث قُدمت في المؤتمر (25) الديموجرافي - القاهرة .
- فضيل، أحمد 1998، تجربة ولاية الخرطوم لمعالجة السكن العشوائي المعهد العربي لإنماء المدن ، الرياض، المملكة العربية السعودية.
- مارتيني، عمر وصفي 1997، الانفجار السكاني والتوطين العشوائي في مدينة حلب منذ بداية القرن العشرين وحتى الوقت الحاضر ، المؤتمر العاشر لمنظمة المدن العربية ، 1994، المعهد العربي لإنماء المدن - الرياض.
- المحيسن ، عبد الله وعمر خطاب 1998، تحليل دراسة مظاهر مشكلة العشوائيات في الكويت ، المؤتمر العاشر لمنظمة المدن العربية، حمرية مكناس 20 - 22 ابريل 1998 م ، المعهد العربي لإنماء المدن، الرياض..
- المعهد العربي لإنماء المدن 1997 ، المدينة العربية واقعها وحاضرها وتحدياتها للمستقبل ، في أعمال المؤتمر العاشر لمنظمة المدن العربية، دبي 3 - 5 يوليو 1994 م، المعهد العربي لإنماء المدن ، الرياض، المملكة العربية السعودية.
- القطب ، إسحاق 1994، نحو استراتيجية للتخضر في الوطن العربي النشرة السكانية ، العدد رقم 24، اللجنة الاقتصادية لغرب آسيا، بغداد، العراق.
- د.محمد سراج ، مشكلة العشوائيات والحياء الفقيرة ، جامعة الأزهر ، بحث منشور في الانترنت 2013 .
- علي وصوف، بحث منشور علي الانترنت موقع بابونج 2016

## فهرس

5.....	مقدمة
7.....	مدخل إلى ثقافة العشوائيات
13.....	مفهوم المجتمع العشوائى
17 .....	الجزور التاريخية
39 .....	سمات ومعتقدات ( العامة )
43 .....	المعتقدات :
49 .....	المهن في العشوائيات
55.....	عشوائية الثقافة
56 .....	درجة تأثير المؤثرات التاريخية :
61 .....	المكؤن الدينى في سلوك الفقراء :
63.....	الجوانب الاقتصادية في ثقافة العشوائيات
67 .....	الاكتفاء بالقليل :
69 .....	الكمية والسعر قبل الجودة :
71 .....	ثقافة المستعمل :
75 .....	الجانب السلبى في ثقافة الفقراء
83.....	اللغة في الثقافة العشوائية
89.....	المجتمعات العشوائية والطبيعة الاجتماعية
89 .....	السمات العامة وأساليب التكيف :
97.....	العشوائيات والعنف الاجتماعى



101	العشوائيات والمسؤولية الاجتماعية للدولة .....
104	ابتلاع المساحة الخضراء : .....
113	تطوير المناطق العشوائية : .....
115	أبعاد ظاهرة العشوائيات .....
120	أثر القهر السياسى على ثقافة العنف .....
128	السمات النفسية لقاطنى العشوائيات .....
135	المجتمع المدنى والدور الإيجابى .....
141	العمل على التنمية بالمناطق العشوائية .....
153	التوافق بين الهيئات فى التقليل من العشوائيات : .....
159	تشريعات وقوانين لمنع العشوائيات : .....
166	التخطيط الاجتماعى والتخطيط العمرانى : .....
170	الخاتمة .....
170	أولاً: المفاهيم السوسولوجية المستخدمة: .....
171	ثانياً: العشوائيات وإشكالية التنمية: .....
172	ثالثاً : المدخل السيكولوجي والسمات النفسية للعشوائيات : .....
174	المراجع والمصادر .....
175	فهرس .....



للشؤون الدولية

## مؤسسة طبية

7 علام حسين - ميدان القاهرة - القاهرة

ت: 27867198-27876470 ف: 27876471 (00202)

محمول: 01112155522-01091848808

Email: [tiba\\_online@hotmail.com](mailto:tiba_online@hotmail.com)

[tiba\\_online@yahoo.com](mailto:tiba_online@yahoo.com)



9774311159